" قصة يوسف التوراتي"

ا.ناجح المعموري

المقدمة

لماذا الاصول الاسطورية لقصة يوسف؟

كنت منذ سنوات مهتما بقصة يوسف التوراتي وعلاقته الفنتاصية مع ملحمة جلجامش بوصفها نصا مكرسا لعب دورا بارزا في التأثير على الآداب الشرقية ، وتبدّي هذا في الملاحم والنصوص الادبية وتوصلت القراءة الى التناصات المهمة بين الملحمة وسفر التكوين، وقدمت هذه التوصلات ضمن كتاب ملحمة جلجامش والتوراة ، سيصدر في دمشق واستمر اهتمامي بقصة يوسف التوراتي وحصرا قميصه الاحمر وصلة ذلك مع الالوهية الشابة المذكرة في الشرق ، وفعلا تأكدت العلاقة الثقافية القائمة بين عدد من الالهة ويوسف. حيث العناصر / والخصائص المشتركة والمتبدية عبر وظائف متماثلة مع كل من الالهة / انكي السومري / مردوخ البابلي / ادونيس السوري / اتيس في اسيا الصغرى / ديونيسيس الاغريقي / اوزيريس المصري / واخيرا يسوع.

هذه الا لهه كلها، انتظمت بعناصر متوازية بعضها مع البعض الاخر وتناظرت بوظائف لها صلة مع نظام الخصوبة. وعلى الرغم من قناعتي بان البحث عن الاصول يقود الى التجريد كما قال ماركس والى الميتافيزيقيا كما قال ميشيل فوكو وتاكيدات نيتشة حول استحالة الوصول الى الجذور الاولى / الاصول المبكرة لانها تلغي الكينونة البشرية / كما قال ماركس ايضا، لكني وجدت ما يساعدني في راي الفيلسوف هايدجر والذي اشار فيه الى ان الاصول تعني البحث عن كيفية التشكل والتبلور.

وابتدات متابعتي في مرحلة جديدة في البحث عن الكيفية التي تبلورت فيها العوامل الثقافية ، لاني تعاملت مع الدين القديم بوصفه نسقا ثقافيا تبلور متمركزا في حضارات الشرق.

وستساهم هذه الدراسة في توسيع المجال التوراتي والاشارة الى مصادره الحيوية / الفعالة التي صاغت البنية الذهنية التوراتية والتي تسللت الى ديانات الشرق المؤسسة واخذت منها ما يساعدها على اعادة صياغة النص التوراتي الذي ظل شفافا، كاشفا عن طبقات ثقافية ليست له ، على الرغم في محاولات الكهنة اليهود لاضاعة وطمس العناصر الدينية الاخرى.

وتظل ملحمة جلجامش الشهيرة جدا نصا مؤثرا في قصة يوسف التوراتي ولا يمكن تجاهل تاثيره المبكر في كل ثقافات الشرق الادنى القديم وكان لحكاية الاخوين المصرية مجال متمركز ايضا. وقد اتضح للقراءة بانها قد نسخت في النص التوراتي، ولا تحتاج الى جهد كبير في معرفة واكتشاف التفاصيل المرتحلة.

اما النص الاسطوري السوري فانه ساعد الدراسة على رسم اطارها الجديد المرتبط بتكون لحظة الالوهية الشابة والتضحية باهم العلامات على الدالة نظام الخصب والانبعاث / والتجدد، مع اشتراكها بناظم موحد لها مع النصين السابقين وانا واثق بان هذه الدراسة المتواضعة ستثير اهتماما ، مثلما ستساهم بتعميق المجال الثقافي المعني بالاسطورة والتوراة، كما انها تنطوي ضمنا على اعتراف بكل من ساهم بالكشف عن اصالة الحضارات ودورها الكبير في انتاج وصياغة الديانات القديمة.

حكاية الاخوين:

" انوبو " و " بايتي" * شقيقان، يملكان دارا صغيرة على ضفاف النيل العظيم، يقيمان فيها معا. وكان " انوبو " الاكبر متزوجا ، فكان يتولى شؤون الادارة

* سليمان مظهر / اساطير الشرق / الكتاب الماسي / مطابع الدار القومية للطباعة والنشر / القاهرة / ب . ت

والتنظيم ، على حين كان " بايتي " الاصغر عاملا، يغزل النسيج ويرعى البقر ، ويحرث الارض.

كان " بايتي " الصغير يعود من الحقل كل مساء، يسوق بقراته في هدوء، وعلى ظهره حمل من حشائش الارض يقدمه لها خلال الليل. وكان متى دخل الدار يحي اخاه وامراته، ثم ينطلق الى الحظيرة ياكل ويشرب وينام. وما تكاد الشمس تستيقظ حتى ينهض من نومه ليعجن الدقيق، وينضج الخبز، ويقدم المائدة حافلة لاخيه وامراته. وبعد ان ينتهي " بايتي " من تناول فتات الخبز، يمنحه اخوه حصته ويصرفه الى شؤون الحقل ويمضي الفتى فيسوق بقراته امامه، وينطلق الى الحقل حيث ترعى البقرات وتسمن، لتعود فتضع عجولا صغيرة كثيرة يستغلها : انوبو " ويخفي ثمنها ، ثم لا يعطي اخاه منها شيئا قط ..!

وذات يوم عندما بدا موسم اعداد الارض للزرع، ذهب الاخوان معا الى الحقل، حيث يشقى بايتي ويقف الكبير ليشرف على العمل ويداه في وسطه يامر وينهي ولا يفعل شيئا ابدا. وعندما اتم بايتي حرث الارض قال له انوبو :

لقد حان وقت الزرع .. فاذهب الى الدار واحضر منه كيس البذور.

وذهب بايتي الصغير الى الدار. ودخل على امراة اخيه وهي منهمكة في تصفيف غدائر شعرها الطويل . طلب الفتى من المراة ان تعطيه كيس البذور ليعود مسرعا فاشارت المرأة الى قاعة المخزن ، وقالت له بلا اكتراث ان يتخير الكيس الذي يريد.

ورفعت المراة عينيها الى الفتى .. كان رائعا قويا كواحد من الالهه تطل من كل جزء من جسده فتوة الشباب وعنفوانه. واحست المرأة كان في اعصابها النار، وفي جسدها فحيح الافعى. وقالت له وفي عينيها تنطلق دعوات كالصراخ:

ما اثقل هذا الحمل فوق ظهرك، ومع ذلك فانت تبدو كمن يحمل قشة ..!

واضطرب الفتى لاطراء زوجة اخيه، ولكنه سار في طريقه كمن لم يسمع ، وعادت المرأة تقول له :ما اجمل ان يكون للمرأة زوج نضر / قوي ، مفتول

العضلات، مملوء بالعنفوان! ، وما اتعس امرأة تعيش مع زوج من قش، كما اعيش مع زوجي !

وازدادت المراة اقترابا من الفتى الصغير، ووضعت كفها الساخن على ذراعه المفتول وهي تهمس :انك اقوى من اخيك يا بايتي واكثر منه عنفوانا وروعة لكم تمنيت ان اكون زوجتك انت !

انتفض الفتى كمن لدغته افعى ودفع عنه امرأة اخيه في غضب وثورة. وراح يلقي في اذنها اقذر النعوت واقبح الاوصاف لتعريضها باخيه، وكانه ما احس غرضا اخر من وراء محاولات المرأة المشحونة بالاثم والعار..

وفتح الفتى الباب، وانطلق الى الحقل ، وهو يجهد ان يخفي غضبه حتى لا يكشف اخوه سره وانهمك الفتى في العمل وكأن شيئا لم يحدث قط .. وما حاول ابدا ان يفتح فمه ليحكي لاخيه من امر زوجته شيئا...

اما هي فقد ارعبها ان يعرف زوجها الامر ، وامتلأت رغبة في الثأر من الفتى الذي طعن كرامتها واذل كبرياءها .. ولو ادى الامر الى القضاء عليه.

وراحت المرأة تلطخ جسمها بالطين . وتخدش ذراعيها وكفيها ، لتوهم زوجها اذ يعود بانها اثار معركة عامرة بالمقاومة ، عندما حاول اغتصابها ، ورفضت ان تستسلم له.

وهبط الليل وسبق الاخ الاكبر اخاه الى الدار على حين كان بايتي يسوق البقرات في الطريق الى الحظيرة وعجب انوبو عندما وجد امرأته لا تستقبله بباب الدار حاملة المصباح ، وعجب اكثر عندما وجد انها لم تعد الماء لتسكبه على يديه وقدميه وانطلق الى حجرتها وقد احس شيئا غير عادي ففوجئ بها راقدة وتتوجع وكل جسدها تلطخه اثار طين وتراب .. والخدوش تغطي كل الذراعين والكفين..

قالت له المرأة ، من خلال الشهقات والدموع :

انه اخوك يا انوبو لقد حاول ان يفعلها معي، عندما حضر ليأخذ البذور، كنت اجلس اصفف شعري فاقترب مني والقى كيس البذور على الارض وراح يتفاخر

بقدرته وقوته ويسخر من ضعفك .. وعندما نهيته هاجمني والقاني على الارض وحاول ان يسرق مني ما تملكه انت وحدك . وقاومته بكل عنف واصرار وانا اقول له ان اخاك كابيك فلا تسرق عرضه. ولكن الاثم لا يريد ان يغيب عن نظرات عينيه، فاقسم ان ينالني بالقوة ... واذ امتنعت عليه راح يضربني ويشتمني حتى سقطت من الاعياء. ثم راح يقسم ان يقتلني اذا بحت لك بما حدث .. ومع هذا انا اشكو واليك ولا اخفي عنك امرا ... على حين اعرف انني اذا اخبرتك انما اضع حدا لحياتي التي سيسلبها مني عندما يعرف انني اخبرتك ... هذا اذا لم تسبق انت وتضع حدا لحياته هو نفسه !

واخذ الاثم والعار برأس انوبو .. ولم يطق تخيل تلك الصورة التي اطلع عليها من خلال كلمات امرأته. فاخرج خنجره فشحذه ، وانطلق به الى الحظيرة متربصا خلف الباب في انتظار وصول اخيه.

ومضت لحظات .. ثم ظهر بايتي وهو يسوق امامه بقراته في الطريق الى الحظيرة .. ولم تكد اول البقرات تدلف من الباب حتى سمعها تقول له :

حذار .. حذار ان اخاك متربص لك وراء الباب وفي يده خنجر مشحوذ ، فانج بنفسك !

ودخلت البقرة الثانية ، فسمعها هي الاخرى تعيد ما قالت الاولى . وكلما دخلت بقرة سمع التحذير والانذار نفسه واخذ العجب بالفتى الصغير .. وانحنى بناظريه يحاول استطلاع ما خلف الباب . فاذا قدما اخيه تتحركان في بطء .. استعدادا للحظة الهجوم .

وفي لحظة ادار بايتي راسه وانطلق يعدو بكل ما في جسده من قوة ومن خلفه انطلق اخوه رافعا خنجره الطويل المسنون ..!

واستعان بايتي بالاله رع حورس ، وراح يهتف في رعب :

ايها الاله الشمس .. يا من تنتصر للمظلوم على الظالم، اقم الحواجز والسدود بيني وبين اخي ..!

واستجاب الاله لدعوات الفتى، فاذا نهر هائل يجري بينه وبين اخيه .. تمتلئ مياهه بافواه التماسيح . واذ راى ذلك توقف عن الجري ، والتفت الى اخيه الواقف يغلي على الضفة الثانية .. وقال :-

يا اخي انوبو ابق مكانك حتى تطلع الشمس .. فتحكم بعدها بيني وبينك وياخذ كل واحد منا حقه. ولكني انبئك منذ الان انني ساذهب الى وادي الطلح .. ولن اقيم في مكان انت مقيم فيه.

وعندما طلع النهار، واشرق رع حورس، وقف الاخوان يحتكمان اليه. وقال بايني يخاطب اخاه :

لماذا حكمت عليّ بالموت قبل ان تستمع الى دفاعي؟

انا لست خائنا، ولا يمكن ان اكون لقد بعثتني لاجلب البذور فراحت امرأتك تقول انني اقوى منك واكثر عنفوانا وزينت لي الاثم وهي تقول انها كانت تتمنى ان اكون زوجها فعنفتها ونهيتها ثم انصرفت. وفي الوقت الذي رفضت فيه ان اخبرك بالامر حفاظا عليها، كانت هي تختلق قصص الاثم لتقتص مني واستمعت انت الى الافعى نخنت اخوتي وغدرت بي واردت ان تقضي عليّ وسكت الفتى وهو يمسح دموعه للحظات ... ثم عاد يقول:

وبرغم كل ما اردت ان تصنع بي يا اخي، ساصفح عنك .. فعد الى بيتك وزوجتك، واعتني وحدك ببقراتك .. اما انا فساذهب الى وادي الطلح ، ولن اقيم بعد حيث تكون ..!

وبكى انوبو وهو يعتذر لاخيه :

انا مؤمن بخطئي ، وساعرف كيف انتقم من المرأة الخائنة .. ولكن انت يا اخي ، لا تتماد في غضبك، وابق معي نعش كاحسن ما يكون الاخوة ، وانزع عن رأسك هذه الافكار التي ملأته .. فلن تستطيع الحياة وحدك بوادي الطلح، حيث الوحوش والشياطين . وهز الفتى كتفيه وهو يجيب :

لقد انتهى ما كان يربطنا منذ سللت خنجرك لتطعنني ومع هذا ، فان كنت لا تزال تحب اخاك، فسيمهد لك رع حورس فرصة التوبة، عندما اقع انا في مصيبة، ولا يكون هناك من احد ينقذني سواك.

وهتف انوبو

كيف استطيع انقاذك يا بايتي وانت في وادي الطلح، على حين اقيم انا هنا ولا ادري من امرك شيئا.

قال له بايتي

ساضع قلبي على احدى زهرات الطلح بقوة السحر. فاذا حدث وقطع اعدائي ساق الشجرة، فسيقع قلبي على الارض. وعندئذ ستفور الجعة في كأسك وتتعكر وستحس مرارة كالنار في حلقك. فاذا اردت في تلك اللحظة ان تنقذني، فالق بالكاس على الارض، واسرع الى وادي الطلح باحثا عن قلبي الذي سيكون قد غاص واختفى .. فاذا وجدته فضعه في اناء ماء بارد، وعندئذ ترتد الىّ الحياة ، وانهض لانتقم بنفسي من كل من اراد لي الموت..!

انطلق بايتي الى وادي الطلح وعاد انوبو الى بيته، فهاجم امرأته بالخنجر ذاته الذي اراد ان يقتل به اخاه، وحمل الجثة الخائنة فالقى بها الى الكلاب.

***

عاش بايتي في وادي الطلح هادئا سعيدا بقضي اوقاته في مطاردة حيوانات الصحراء، ويعود مع الليل الى بيت انيق صغير اقامه في جانب الوادي، وبينما هو جالس ذات يوم، رأته الالهة التسعة الذين يتدبرون شؤون مصر.

وقالت له الالهة:الا تؤلمك العزلة يا بايتي ؟ اليس من الخير لك ان تعود الى بيتك بعد ان تار لك اخوك من امرأته؟

وسجد بايتي للتاسوع المقدس. والتمس من الآلهة ان يتركوه في وادي الطلح حيث يعيش

وراى رع حورس ان يخفف عن الفتى وحشة العزلة، فامر الاله الخلاق خنوم ان يخلق له امرأة تشاركه الحياة. وخلق له خنوم زوجة اجمل من كل نساء الارض. تشبه ايزيس ..!

وهبطت الزوجة لتقع بين احضان الفتى الصغير، وملأته فرحة غامرة، وسعادة لا توصف. ولم يدر ان ربات الجمال السبع ما كدن يشاهدنها وهي تقع بين ذراعيه حتى تنبأن في صوت واحد بانها ستموت بالسيف.

واحب بايتي امرأته كما لم يحب رجل امرأة قط

وبلغ به الحب حداً ان صار يغار عليها من النيل نفسه، فمنعها من مغادرة الدار، والاقتراب من النيل ، حتى لا يخطفها النهر. ومن اجل ان يؤكد لها مدى حبه واخلاصه كشف لها عن سر قلبه المعلق على زهرة الطلح ، وحذرها من قطعها حتى لا يفقد حياته ويموت .. !

وخرج بايتي للصيد ذات يوم ، وكان الضجر قد اخذ بأمرأته لطول ما اقامت وحدها في البيت، فانتهزت الفرصة، وغادرت الدار منطلقة الى حيث شجرة الطلح التي حذرها من الذهاب اليها ودفعها الفضول الى رؤية القلب المعلق على الزهرة، واذ اشبعت فضولها ، جاست على جانب النهر وكشفت عن ساقيها الجميلتين، ودلتهما في الماء، وهي تحركهما في صخب، ولذة وانطلاق. واضطرب النيل واثاره مرأى الساقين الجميلتين، واحس جوى اليها فدفع امواجه تضمها وتحاول اختطافها ولكنها سارعت برفع ساقيها العاريتين، وانطلقت تجري في خوف الى داخل الدار. أسف النيل لهرب التي رغب فيها وراح يتوسل الى شجرة الطلح ان تدعه يخطفها، ولكن الشجرة رفضت توسله، وظلت على رفضها، وهو على توسله، حتى اشفقت عليه اخر الامر، فمنحته خصلة من شعر المرأة، يشم فيها عبيرها ويطفئ بها ظمأه المجنون ..!

وحمل النيل خصلة الشعر وراح يجري، ولم ينتبه خلال جريه الى مغسلة فرعون التي كانت تمتد من جانب الشط، فاذا بخصلة الشعر تسقط في المغسلة، واذا

بالطيب الساحر يتسرب منها الى ثياب فرعون فيثير اعصابه، ويقسم ليقتلن رئيس الغسالين اذا لم يأته بسر الطيب..!

وراح رئيس الغسالين يبحث وينقب، حتى عثر اخر الامر على خصلة الشعر في المغسلة، فحملها الى فرعون الذي شمها، فاحس نشوة صاخبة مجنونة وامر السحرة ان ياتو اليه للتو.

اجتمع كل سحرة المملكة عند الملك. وراحوا يفحصون خصلة الشعر، ولا يفهمون لها سرا ولكن واحدا منهم هتف اخر الامر :

ايها الملك، هذه الخصلة، انتزعت من شعر احدى بنات الاله رع حورس

واقسم الملك ليبحثن عن ابنة الاله ذات العبير الساحر وارسل رسله يجوبون كل انحاء الارض وعاد بعضهم ليرفعوا تقارير فشلهم الى الملك . اما الاخرون الذين ذهبوا الى وادي الطلح، فلم يعد منهم سوى واحد فقط استطاع الهرب من بايتي الذي قتل رسل الملك عندما حاولوا التسلل لمعرفة مكان امرأته.

وانطلق الرسول الهارب الى الملك يخبره بمكان ابنة الاله رع حورس. وامر الملك فرقة من الفرسان والرماة بالذهاب الى وادي الطلح، وارسل مع الفرقة امراة اوصاها بمرافقة ابنة الاله متى تم اختطافها ومساعدتها على التأنق والتزين وكمنت الفرقة بين الغاب حتى خرج بايتي للصيد .. فهاجموا البيت الصغير واختطفوا المرأة التي خلقها خنوم وانطلقوا بها الى فرعون.

***

عاشت المرأة في القصر كملكة واستقر بها الرأي ان تبقى هناك الى الابد ولا تعود الى وادي الطلح حيث الرجل الذي لم تخلق لسواه.

وعندما بدالها ان سيأتي اليوم الذي لابد ان يعثر عليها زوجها انطلقت الى فرعون تكشف له سر القلب المعلق على زهرة شجرة الطلح، وكيف يفقد الرجل حياته متى قطعت الشجرة، وسقط القلب..!

وانطلق رسل الملك من جديد الى وادي الطلح، وعندما عادوا كانت الشجرة قد قطعت، وكان القلب قد اختفى تحت الارض.

ومضى نهار كامل .. وجاء مساء..

وجلس انوبو الشقيق الاكبر في بيته يملأ كاسه فاذا بها تتعكر وتزيد . ومن زبد الجعة شهد انوبو وجه شقيقه ... فادرك انه في مكروه. ولبس حذاءه وجمل سلاحه واخذ طريقه الى وادي الطلح. وعندما دخل بيت اخيه وجد الجثة لا تزال ساخنة فوق الفراش وراح يبحث هنا وهناك عن القلب الضائع ولكنه لم يستطيع ان يعثر عليه.

واستمر انوبو يبحث ويجد في البحث .. وراحت الايام تنقضي وتعقبها الشهور وهو لا يزال يبحث عن قلب اخيه حتى مضت ثلاث سنوات وادرك في النهاية ان الامل قد ضاع وقرر ان يعود الى المدينة.

وفي اليوم الذي يسبق الرحيل نزل انوبو يبحث عن قلب اخيه للمرة الاخيرة فظفر ببذرة في شكل قلب لم يكد يضعها في كاس به ماء بارد حتى انتفخت وظلت تتشبع بالماء وتنتفخ حتى صارت في حجم القلب. ولم يكد القلب يبلغ حجمه الطبيعي حتى تحرك الجسد الذي كان لا يزال محنطا فوق الفراش وفتح بايتي عينيه وعادت الحياة اليه.

***

انطلق الاخوان عائدين الى منفيس . وخلال الطريق راح بايتي يقص على اخيه كيف سينتقم من المرأة التي خانته، والملك الذي قتله ... واتفقا على الطريقة التي يمكن ان يدخلا بها القصر.

وفي الصباح تحول بايتي الى صورة ثور.. يحمل كل علامات التقديس من سواد الشعر وبياض الجبهة وانتصاب نسر مبسوط الجناحين على الظهر، وصورة جعران على اللسان مع غزارة في شعرات الذيل ..!

وطلب بايتي من اخيه ان يقوده في تلك الصورة الى القصر حيث تعيش امرأته ..
وقال له : سر بي الى بلاط فرعون فهناك الناس سيحسنون وفادتك، ويقدمون لك خير الطعام ويثقلونك بالذهب والفضة .. وسينظر الناس الي كتحفة خارقة ويقدمونني ويجعلون لي في الارض اعيادا عندئذ عد انت الى بيتك واتركني داخل القصر حيث انزل نقمتي بكل من فيه ..
وانطلق انوبو يقود الثور في الطريق الى القصر واطلت الملكة فاذا ثور مقدس فيه كل علامات التقديس يقوده فلاح فأمرت باستدعاء صاحبه.
ودخل انوبو يقود الثور حتى القاعة التي يجلس فيها الملك والملكة فلم يكد الملك يرى الثور حتى انحنى له ثم امر باكياس من الذهب والفضة تهدى للفلاح واخذ الجنود الثور الى حضيرة انيقة لا يغلق بابها ابدا وكلف امهر العبيد بالسهر عليه وتدليله ورعايته كل صباح ومساء.
وراحت الايام تمضي، وبدأ الثور ينزل وحده من الحضيرة الى الحديقة ولا احد يمنعه فما كان احد في مصر يجرؤ على اعتراض طريق ثور مقدس او حرمانه عن التمتع بحريته.
وذات يوم دخل الثور حرم القصر .. وقف امام اجمل نساء فرعون واحلاهن .. ولم تكن سوى زوجته ..!
وانتبهت امرأة فرعون الى الثور ومدت كفها تربت على شعره ولم تكد تفعل حتى سمعت من بين شفتي الثور صوتا يدعوها فانحت لتنصت وقال الثور :
انظري .. ها انا حيّ .. !
وهتفت الملكة في فزع ورعب
انت . من تكون .. ؟
قال الثور بايتي زوجك الذي خلقك الاله من اجلي لقد طلبت من الملك قطع الشجرة لاموت .. ولكني مع ذلك ما زلت حيا في جسد ثور ..
وغادر الثور حرم القصر وترك زوجة فرعون اشد ما تكون فزعا ورعبا .. ومضى

وبينما كان فرعون يجلس الى زوجته حول مائدة عامرة باطايب الطعام والشراب ، راحت هي تصب له الكاس وفي خلفه كأس حتى ثمل وانهار .. واسلس لها القياد .. هنا قالت المرأة لفرعون : عدني بحياة رع حورس، ان تمنحني كل ما اطلب منك

وضحك الملك في نشوة وهو يقول :

وحياة رع حورس .. لامنحنك ما تطلبين ..

اذا امنحني كبد ذلك الثور الحبيب

وفي نشوة الخمر .. وانتظار اللذة امر الملك بذبح الثور وانطلق الجزارون وفي ايديهم السكاكين وعندما غادروا الحظيرة كان كل شيء قد انتهى وكان جسد الثور محمولا على اعناقهم وقد فارق الحياة .

ومر الجزارون وجسد الثور معهم امام باب فرعون وبينما هم يمرون قطّرت الجثة دما امام الباب فاذا شجرة اللبخ قد ارتفعت حيث قطر الدم .. وهي تحمل ثمارا حلوة / لذيذة / مقدسة .. واحيط الملك علما بالمعجزة فاقام حفلا رائعا للشجرة اشترك فيه كل اهل بلاد مصر ..

ومضت ايام ..

وهبط الملك الى الحديقة ذات يوم والى جواره زوجته وتحت شجرة اللبخ المقدسة جلس الملكان يتساقيان كؤوس الحب واذا هما بنشوتها انتبهت الملكة الى صوت يقول لها:

ايتها المرأة الخائنة .. اتفعلين ذلك وانت تستظلين بظلي انا زوجك بايتي

وصرخت المرأة وهي تحملق في الشجرة التي عادت تقول :

ها انذا ما ازال حيا برغم كل اوامرك وخياناتك لقد طلبت قطع شجرة الطلح ليموت فلبي وامرت بذبح الثور لافقد الحياة .. ولكني مع ذلك لا ازال حيا في تلك الشجرة التي تطل عليك كل صباح ومساء.

وبينهما الملكة تقضي مع الملك وقتا لا يكاد خلاله يستطيع ان يرفض لها طلبا ..
قالت الملكة له : عدني بحق رع حورس ان تمنحني ما اريد
وحياة رع حورس لامنحنك كل ما تريدين
اصدر اوامرك بقطع شجرة اللبخ، وليصنع لي من خشبها خزانة جميلة رائعة.
وفي اليوم التالي امر الملك بقطع شجرة اللبخ ووقفت الملكة تتشفى بينما النجارون يشقون الساق، ويمزقونه ويصنعون لها خزانتها
وفجأة .. وبينما هي تأمر وتنهى طارت الى فمها قطعة صغيرة من الخشب ابتلعتها بالرغم منها ولم تهتم لها ابدا
ومضت ايام وشهور وجاء الملكة المخاض..
وولدت امرأة فرعون ولدا ذكراً لم يكن سوى بايتي هو نفسه .
وخرج الملك بالطفل الصغير واعلنه وليا للعهد ووارثا للملك من بعده على مصر.
وراحت السنوات تمضي والامير يكبر والملك يقترب من الشيخوخة وعندما بلغ الفتى عنفوانه كان فرعون في طريقه الى السماء.
وملات الافراح كل مصر وهي تحتفل بالملك الجديد بينما الكهنة يضعون على رأس فرعون تاجه .. طلبو منه ان يتزوج امه زوجة الفرعون الراحل
وبينما الجميع ينتظرون ان يعلن الملك زواجه انطلق يحكي ما كان .. منذ خرج هاربا من دار اخيه حتى اجلسه الالهة على عرش مصر .. وبين هذا وذاك عرف الجميع من تكون المرأة التي تقف امامه لتكون زوجة الملك الجديد.
وارتفع صوت الملك يسأل كهنته وقواده عن الحكم الذي ينزلونه بالمرأة الخائنة ..
وفي صوت واحد قال الجميع :
الموت ..!
ونفذ الحكم .. وبالسيف قطع راس الملكة تماما كما تنبأت لها ربات الجمال السبع.
اما بايتي فقد استمر يجلس على عرش مصر عشرين سنة

طار بعدها الى السماء تاركا عرشه لـ انوبو الاخ الذي كاد يقتله ذات يوم بسبب امرأة.

وسننقل مقاطع من هذه الحكاية فيها اختلافات جوهرية واساسية ستغني القراءة والتاويل وهي المقاطع تضمنها كتاب شكري محمد عياد*

وصل اخوه الاصغر لرع صراخاتي قائلا :

الهي الطيب انك انت الذي تقضي بين الظالم والعادل.

حينئذ سمع رع كل ظلامته ، وخلق ماء مملوء بالتماسيح بينه وبني اخيه الاكبر ، ووجد احدهما نفسه في جانب ، والاخر في الجانب الاخر فضرب الاخ الاكبر على يده مرتين بسبب عدم قتله وناداه الاخ الاصغر من الجانب الاخر :

ابق هنا الى الفجر ، وعندما تطلع الشمس نتحاكم انا وانت امامها وستسلم الشرير الى الخير لانني لن اعيش معك ثانية ولن اكون في مكان تكون فيه وانما ساذهب الى وادي الارز.

وعندما انبثق الفجر واتى يوم اخر اشرق رع صراختي وراى احدهما الاخر وتحدث الفتى مع اخيه الاكبر قائلا

لم تبعتني لتقتلني خطأ قبل ان تسمع ما لدي من قول لاني حقا اخوك الاصغر وانت كوالد لي وزوجتك كام لي اليس الامر كذلك ؟ والان عندما بعثتني لاحضر البذور لنا قالت لي زوجتك :

- تعال فلنقض ساعة راقدين – ولكن تأمل لقد عكست الامر لك

واخبره بكل ما وقع بينه وبين زوجته واقسم برع طرختي قائلا :

لقج كان مجيئك بحرية لتقتلني خطأ بامر من افاجرة.

واخذ سكينا مصنوعة من القصب وقطع عضوه الخاص، والقاه في الماء، فابتلعته سمكة شبوط واغمي عليه وضعف فرثى له اخوه الاكبر اشد الرثاء ووقف يبكي

* شكري محمد عياد / البطل في الادب والاساطير / دار المعرفة / القاهرة 1959.

بصوت عال من اجله ولم يقدر ان يعبر الى حيث كان اخوه الاصغر بسبب التماسيح.

تأويل الحكاية

سيبدو واضحا تأثير الاختلاف على القراءة الخاصة بالحكاية وتأويلها وسيكون مجاله واسعا وكبيرا في ادخال عدد من الاراء حول الرحلة وقطع الذكورة.

قدمت الحكاية منذ الاستهلال توصيفا دقيقا عن الاخوين وعرفت بالكبير ويلاحظ بان الاستهلال قد هيمن على الحكاية حتى نهايتها ولم تستطع الحكاية التخلص منه على الرغم من التفاصيل العديدة الاضافية التي استوجبتها الضرورة السردية / المحكومة بالعنصر السببي اللازم لكل حكاية.

والاستهلال بنية فنية* واسلوبية خاصة تجعله متميزا عن بقية العناصر النصية وهذه البنية اتية من : ان محتوى واسلوب النص هما اللذان ولدا مفردات الاستهلال فالاستهلال نتاج النص وان هذه المفردات تمتد داخل النص نكيوط السدى لتولد صورا او مفردات جديدة منبثقة منها فالاستهلال بنية خاصة تتناسب وموقعه في اول الكلام اولا وموقعه باعتباره حاملا لنوى النص كلها ثانية.

ومنذ القراءة الاولى تبينت عناصر البنية السردية للحكاية تلك العناصر التي ظلت مهيمنة ومتمركزة واستولدت عددا من البنى الاساسية ، صغيرة ، وكبيرة ، لذا حصل توصيف مهم . انوبو وبايتي شقيقان ولهما دار صغيرة على ضفاف النيل الذي سيعاود الظهور في النص بعد ان تغادر الزوجة بيتها وتقصد النيل. تخصص الكبير بالاعمال الادارية وتنظيم امور البيت يكشف هذا التوضيح دورا مركزيا في الحياة اما بايتي فلأنه صغير فما عليه الا ان يقوم بالاعمال الزراعية كاملة وما يتبعها من رعي وخدمات خاصة بالحيوانات.

* ياسين النصّير/ الاستهلال فن البدايات في النص الادبي – دار الشؤون الثقافية / بغداد / 1993 / ص 26.

لقد اتضحت حدود المركز في البيت مثلما تبدّت تفاصيل الهامش وسطه وزادت المعلومات الاتية التي لها وظيفة فنية / فكرية وكرست المجال الحيوي لعنصر التطور السببي وماله علاقة بالطعام والشراب ومكان النوم. كلها لعبت دورا في ترسيم المركز / الهامش على الرغم من ان الاثنين يعيشان في دار واحدة ويبدو بان حكاية الاخويين تمثل نصا حكائيا مبكرا في الثقافة الجزرية التي اهتمت بالجانب الثقافي الاسري والذي يمثل جانبا من بطرياركية / وعشائرية وهذا واضح من الفروق الموجودة بين الاثنين لان انوبو كبير وتزوج هو الاول وصار مشرفا ادرايا وحصته من الطعام حصة الاسد.

وما على الاخ الاصغر بايتي الا القبول والرضوخ لان الثقافة البطرياركية اسست انساقها التي أضفت عليها هيبة تنسحب نحو المجال السوسيولوجي بمفهومه الواسع ولولا تمركز الثقافة البطرياركية ما كانت تلك الفجوة التي كشفها النص الحكائي وقادت حتما الى الذي اوضحه النص وما حصل من تطور دقيق / ومحكم يمثل نتاجا للثقافة البطرياركية / والقاموس الذكوري الذس ظل متمثلا اللسان الرجولي في تطورات النص لاحقا ومضيئا المرحلة الزراعية وثقافتها المتداخلة مع ما سبقها وخصوصا الرعوية وتبدّت المرحلتان معا في الحكاية ، في الذي اومات له عبر النسق الحكائي ، وبرزت وسائل الانتاج البسيطة في الحراثة والزراعة ، ورعي الحيوانات وصناعة النسيج وسيادة الملكية الفردية .

وبرزت شخصية الاخ الصغير تابعة / وهامشاً ومثل كل الهوامش في الحياة الزراعية نهضت بدور مركزي في الحياة وعبرت عن مقدرة عالية في استغلال كل الوسائل الانتاجية المتوفرة حتى انه كان يقوم بمهام منزلية هي من مجال الانوثة في البيت والحياة الزراعية ومنها استمراره باعداد الطعام وتقديم مائدة لـ انوبو وزوجته ولا يحصل منها الا على الفتات . ويبرز من خلال النص الحكائي بأن الطرفين دفعا بالاخ الاصغر الى الهامش، لا بل الهامش المتدني جدا بحيث كانت ايرادات عمله تؤول للاخ الاكبر / الزوج وزوجته حتما.

ولا يمكن ان يكون السبب الاول في هذا هو قدرات بايتي الجسدية المتميزة عن امكانات اخيه وانما كما قلنا هو هيمنة الثقافة الذكورية في توصيفها للادوار القائدة في حياة العائلة والتجمعات الكبيرة وسنلاحظ لاحقا دور هذه الثقافة في تحديد مستوى ونوع الصراع الذي واجهته البطرياركية مع الانثى ، باعتبارها خصما لدودا وملعونا وحتما كان الدور المناط عرفيا للاخ الاكبر هو دور بطرياركي لان الحكاية منحته صفة الاب.

لم يكتف الاخ الاكبر انوبو بدوره الاداري داخل البيت وانما انسحب الى الحياة الزراعية وكان يكتفي بمراقبة الاخ والاشراف عليه اثناء عمله في الارض واصدار الاوامر التي تعتبر ملزمة التنفيذ.

ويبدأ النمو المتصاعد في بنية الحكاية في اللحظة التي انجز فيها بايتي حراثة الارض وتحضيرها للزرع وهنا يتشكل تواز واضح بين الحرث وتحضير الارض وبين الرغبة المتشكلة في الجسد الانثوي والمتبلورة والتي لم تستطع التكتم عليها وقد عرفت المجتمعات القديمة تلك العلاقة المباشرة بين الارض / والمرأة .عندما تحين لحظة نثر البذور يجب على الزوج الاتصال جنسيا بزوجته فوق الارض المحروثة، وهي انماط سحرية وطقوس ذات صلة بالخصوبة في الحياة وكان الزوج قد اتخذ صفة الاله من خلال الشعائر السحرية ومارس دور الزوج بعلاقته مع الارض / الام الكبرى.

كان يسود في كثير من انحاء اوربا بعض العادات* التي كانت تمارس في الربيع وفي موسم الحصاد بالذات وهي كلها عادات تركز على تلك الفكرة البدائية ذاتها حول امكان الاستعانة بالاتصال الجنسي بين البشر في الاسراع بنمو النبات. ويرقد المتزوجون الشباب مع زوجاتهم فوق الارض التي بذرت بها الحبوب ويتمرغون فوقها عدة مرات اعتقادا منهم بان ذلك سوف يزيد نمو المحاصيل وفي بعض اجزاء

* جيمس فريز / الغصن الذهبي / ت: د. احمد ابو زيد / الهيئة المصرية للتأليف والنشر / القاهرة / ج1 / 1971 / ص 465.

روسيا يتمرغ القسيس نفسه . ويساعده في ذلك بعض النساء على الزرع النابت بالطين والحفر التي يقع فيها اثناء قيامه بهذا العمل الطيب المفيد.

ولذا لا يمكن للقراءة اغفال التاثيرات النفسية المتزامنة مع وقت الحرث وتحضير الارض لنثر البذور. وقد مارس هذا الفعل الزراعي ثاثيره على الزوجة المحرومة وتماهت - تماما - مع الارض / الام المستعدة للحظة الاخصاب من خلال البذور التي هي حيمن الارض ، وما هي الاسباب التي جعلتها تفكر بممارسة الجنس لحظة الزراعة، وهي معه في بيت واحد ومنذ زمن طويل.

ان التناظر الموجود بين الانثى والارض، هو الذي هيج المكامن في اعماق الزوجة ولان الانسان في القديم يؤمن ويعتقد بان الانثى هي الارض ولا فاصل بين الاثنين وما دام نظيرها - الارض - استعدت لفعل الاخصاب، يجب عليها ان تمارس هذا الحق / والدور، والذي يمارسه بقدرة جيدة هو الاخ الاصغر بايتي لذا طلبت منه الاتصال الجنسي.

ولم يكن قرارها انيا وانما فكرت به لانها استعدت وربما تعرف بان الاخ الاصغر سياتي الى البيت وهيأت جسدها وكان لشعرها الطويل دور في الاثارة والهياج لكن الحكاية لم ترسم المشهد السردي بشكل دقيق ، بعد عودة الاخ الى البيت وكان يفترض دخوله مباشرة الى مخزن البذور، ولا يطلبها من زوجة أخيه حتى يكون للرمز الجنسي / الاخصابي فضاءاً اوسع واكثر اقترابا مما حدث ويؤسس توازيا ملحوظا بين ماء الذكورة والبذور واعتبارهما رمزا واحدا الا ان طلبها - البذور - من الزوجة يعني اتساع مساحة الهامش الذي هو في وسط البيت.

ولم تكتف بالعلامات الجسدية التي هي نداء الانوثة الجائعة للذكورة كي تمارس دورها في الاغواء واثارة الشاب القوي المحروم من المتعة . الشاب بامكانه ارواء عطشها الذي لم يستطع عليه انوبو الزوج ، ضعيف الجسم والمنشغل بما يوفر له كثيرا من الايرادات وحتما كانت مسؤوليته الادارية تثير له المتاعب (والمشاكل وهو مهتم بها بسبب مركزيته في العائلة وهذه الانشغالات لها تاثير نفسي معطل ومعرقل

للطاقة الذكورية الموجودة في جسده. ويبدو للقراءة – ايضا – بان النص الحكائي على الرغم من كونه نتاجا ثقافيا للبطرياركية فانه دفع ما يسيء للبطرياركية كمكانة اجتماعية واظهرته ضعيفا وغير قادر على مزاولة العمل العضلي / الزراعي.

ان التفكير بفحولة بايتي هو اشتهاء له، وثمنِ الارتواء به ومنه. وهنا تفتح جسدها على وظيفته وتدفع به الى مداه الجنسي / الشبقي حتى يحقق بالاغراء هدفه / حلمه. لكن بايتي كذكورة محكومة باخلاقيات البيئة الزراعية / الرعوية ادرك بان ذلك الانفتاح الجسدي / الانثوي / هو انفتاح شيطاني والعلاقة المفترضة بينهما غير متوازنة من خلال السلوك الذي كرسته الثقافة واختار موقفا ضديا تجاه المرأة / الشيطان / الافعى وبذلك يكون الخطاب البطرياركي هو الذي شرع تلك الظوابط القامعة / والضاغطة على جسد الانوثة، والمعطلة لفضائها الجنسي / اللذّي . وجعل الاشتهاء او ممارسة اللذّات خلافا للعرف التواتري، خرقا اخلاقيا / واجتماعيا. وكرس اللذة باعتبارها استهلاكا مجردا لا قيمة فيه. والجسد لا ينفتح الا بقدر ما يستثار* . حيث تتعاون القوى النفسية والحبيسة في ممارسة السلوك الجنسي، ولسبب بسيط كما يبدو ، وهو ان الجسد بكليته معني بالسلوك الجنسي، ومسكون بفعاليته - ، اليست اللذة في حقيقتها تغمر الجسد كله حيث الانتشاء وهذا يعني ضرورة التهيئة لذلك ، فالغنج يضع الجسد في فضاء اللذّة، ويحيل كل ما فيه الى قدرات حيوية وطاقة تستثيره من الداخل، وهو في جوهره مغازلة جسدية، واستلطاف له، واستطراف كذلك، وفي الوقت نفسه مناظرة ودية / متعية معه / وتمازح لذتي!

ان اشتهاء الاخ الاصغر ، يرسم صورة لتفكيك العلاقة الاسرية القائمة بين الزوج وزوجته ، وبين الاخ الاكبر و بايتي وبين الزوجة والاخ.

* ابراهيم محمود / المتعة المحظورة / دار رياض الريس / بيروت / 200 / ص 301

لقد تمكن الجسد الانثوي من خرق الثقافة البطرياركية وخلخلتها والغاء هيبتها المزيفة التي صاغتها جمهرة القوانين* والتشريعات والانظمة التي تجعل من الجسد وكيفية اخضاعه لاكراهات متتالية ومستمرة، فلا شيء يضبط الجسد سوى الجسد نفسه ، وهذا لا يكون الا بعكس مضمونه، بجعله القلب العملي لما هو عليه في واقعه.

لقد تمردت الانثى على حالة السكون التي اعتادها الجسد الجائع، واخترقت الظوابط الاخلاقية / والقوانين الاجتماعية وغادرتها . وما قامت به الزوجة ، هو تلبية لنداء داخلي / ازلي كي تقوم بوظيفتها وتجعل من الجنس وظيفة حياتية متجسدة، لا مكيسة وفق الضابط الذكوري لان الانوثة كجسد لا يمكنها ان تستهلك ابدا والممارسة اللذية – مهما ازدادت – فانها تجديد لتلك الطاقة وليس استنفاذا لها. ويكسب التنوع في الممارسة لجسد الانثوي حيوية من خلال تكرر الاختبار له عبر الفعل الاتصالي.

العين فاتحة الجسد وكاشفة شبقه، وهي المرسلة شفرات المحبة واشارات الوله والجنون وهي فاضحة للمرأة اكثر من الرجل ، لانها – المرأة – ملزمة بالصمت ولا تعرف كلاما غير الاشارات / والشفرات التي تبثها، والعين اقدر من غيرها من اجزاء الجسم في ارسال رسائل الود والحب الى الاخر.

ورفعت المرأة عينها الى الفتى ... كان رائعا / قويا كواحد من الالهة تطل من كل جزء من جسده فتوة الشباب وعنفوانه واحست المرأة كأن في اعصابها النار وفي جسدها فحيح الافعى.

انها تستعين بعينها وما يساعدها من اعضاء على الارسال، لانها ** محجوبة عن حيز كبير من اللغة ، وليس لها سوى بعض اللغة مثلما ليس لها سوى بعض العمر

---

* ابراهيم محمود / المتعة المحظورة / سبق ذكره ص 278.

** د. عبد الله محمد الغذامي / ثقافة الوهم / المركز الثقافي العربي / بيروت / 1998 / ص 56.

وبعض الحياة . وهناك من اللغة ومن الحياة ما هو ليس من حاجيات المرأة ولا من ضروریاتها.

ویکشف النص الحکائي بوضوح تام هیجان المرأة واشتعالها الشهوي، الذي تجسد بالوصف الدقیق لمعالمها الجسدیة، وتوصیفها للشاب الصغیر. وهذا یؤکد ما ذکرناه من انها منتظرة لقدومه ولم یکن موقفها لحظیا / ا وآنیا ولذا کان استعدادها طویلا من اجل الظفر به وحیازة بعض قوته وماء فحولته لیسکبه في عمق الارض المحروثة حتی تختبر صلاحیتها للخصوبة بعدها فشلت في تحقیقها مع زوجها انوبو یری العاشق * ما لایراه غیره من الناس ، انه یری محاجر عیون لا نراها نحن، وهو یری محاجر العیون تحدیدا ولیس اي عضو اخر من الجسد . ولذا فان هذه العیون تتلاقی مع عیون العاشق وفي لقاء النظرتین یصاب المحب في بصیرته ولا تقع الضربة الا في البصیرة تحدیدا ولذا یفقد صوابه.

بسبب فوران الجسد الانثوي وطغیان شهوتها، وجدت في بایتي صفات جدیدة ، وهي صفات الالوهة، بشخصیة انکیدو في ملحمة جلجامش والتي خلقته الالهة. الام الاکدیة / ارورو، وکان واسع الفهم وجمیلا کالاله وتلك صفة الملك جلجامش. وقد صعدت هذه الصفات وارتحلت لتستقر في الخطاب التوراتي / سفر التکوین حیث کان ادم کاله ایضا.

وهناك اکثر من سبب في منحها تلك الصفات الی الشاب بایتي :

جعلها الجوع الشهوي ان تری فیه شکلا جدیدا لم تعهده به من قبل.

ضجرها وجزعها من زوجها انوبو الذي لم یقدر علی اطفاء لذتها او تطمین الحاجة الجسدیة ولحظة نشوئها.

تمتع بایتي بطاقة جسدیة لافتة للانتباه

* د. عبد الله محمد الغذامي / ثقافة الوهم / سبق ذکره .. ص 164

وتتجلى اللذة مفهوما ثقافيا. انها لا تعود محصورة بالجسد بقدر [**] ما تكون موجهة من خارجه وان كانت نابعة من داخله فيما ان الجسد منظم ومقوعد في اطار الهندسة الاجتماعية فان ذلك يعني تربيته سلوكيا وفرز وظائفه عن بعضها البعض ..

وتستمر سلطة انتاج الثقافة البطرياركية بتكريس هيمنة خطابها الذكوري / التسلطي وتقذف بالصفات التي اسستها تلك السلطة بوجه المرأة او تشوه الخطاب الانثوي ، ولذا اعادت اليها الصفات التي عرفتها في اسطورة الخطيئة " واحست المرأة كأن في اعصابها النار ، وفي جسدها فحيح الافعى "

في النص وضوح للحظة الاغواء الاولى ودور الافعى في ذلك هذا الدور المرتحل الى الانوثة، صار من خاصياتها التي عرفت بها. ومنذ لحظة الخطيئة الاولى التي وقع وزرها على المرأة حصل تناظر بين المرأة والافعى التي تحولت في الحضارات الاسومية الى رمز للالوهية وصارت علامة تتناوب مع الام الكبرى في الفنون التشكيلية والعبادات في الشرق الادنى القديم . ولا يمكن العزل بين الالهة انانا / عشتار – مثلا – والافعى ، انها رمزها ودالها الفكري المعروف.

وقد اعتقد الانسان [***] القديم بان الحية خالدة لا تموت، وان تبديلها لجلدها القديم بجلد اخر ، هو تجديد لحياتها، كلما نال منها الهرم . وربط بينها وبين القمر الذي يجدد حياته ابديا. في دورة شهرية دائمة. وكانت الحية رمزا للالهة القمرية منذ الازمنة السحيقة .. وفي وصف بابلي للالهة عشتا ران جسدها مغطى بحراشف الافعى . وفي ذلك تعبير رمزي على صلتها وتجديدها الدوري . ومن علاقة القمر بالافعى انتقلت التصورات الميثولوجية الى الربط بين الافعى المرأة . فالمرأة في اصلها كانت افعى والافعى كانت امرأة.

[**] د. عبد الله محمد الغذامي / ثقافة الوهم / سبق ذكره .. ص 276

[***] فراس السواح / لغز عشتار / دار سومر للدراسات والنشر / نيقوسيا / قبرص / ط2 1986 / ص 136.

وتبدو عشتار في كل الثقافات مصحوبة بالافعى في كثير من الاعمال التشكيلية التي تصورها فعشتار البابلية تلبس على رأسها تاجا على هيئة افعى ذات رأسين.

***

ان حية الام الكبرى، هي رمز معقد ومتشابك ، ولكنه في [*] جانبه الاساسي يشير الى خصائص عشتار القمرية ... وحواء هي نموذج انساني مصغر لعشتار سيدة الحياة ، واسمها نفسه يعني الحياة، سيدة الحياة لان كل الحيوات المقبلة الى نهاية الكون مودعة في صلبها .

وواضح بان البنية الذهنية البطرياركية مدركة تماماً لما حصل في الحكاية واعتمدت كليا على قدراتها اللغوية لتاسيس وتكريس خطابها الثقافي ، ضد الانوثة لان الثقافة سلطة وقوة اولا [**] وكل سلطة – مهما كانت – تسعى الى بناء نفسها وتحصين قوتها، ومن ثم فانها تتصدى للدفاع عن امبراطوريتها وثيمها.

واندفاع الخطاب الثقافي الضدي للتذكير بلحظة الخطيئة الاولى، هو دعوة لتكريس العلاقة الثقافية / والاجتماعية بين الانوثة والافعى ، لانهما يلتقيان بعناصر عديدة مشتركة.

ولان الشهوية [***] سلوك شراني محض، ما دامت تمارس بمفردها، خصوصا من قبل المرأة التي تعادل الشيطان على اكثر من صعيد . فاذا كان الشيطان متميزا سلوكيا بالفتنة، فان المرأة مرادفته. اي فاتنة وهذه تتمركز في بؤرة الفتنة التي تزعزع السلوك النفسي.

هي الانوثة اذن جزء وليست كلا

صفات وليست جوهرا

تحويل اصطناعي وليست طبيعة وفطرة

---

[*] فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره ص 140

[**] د. عبد الله الغذامي / ثقافة الوهم / سبق ذكره ص 139.

[***] ابراهيم محمود / المتعة المحظورة / سبق ذكره .. ص 283

واخر عمرها شر من اوله / هذا ما تقوله الثقافة وتعزرة كما قال الغذافي
واضفاء صفة الافعى على الزوجة تذكير بالجذر الاول – الذي اشرنا اليه – وربما لاسباب اخرى وكثيرة اشارت لها الدراسات الانثروبولوجية**** باعتبارها رمزا قضيبيا جنسيا شائعا، وقد ساد الاعتقاد في بعض البلدان انها علمت البشر طريقة الاتصال الجنسي.
وظلت الافعى كعنصر مهم في العلاقة الثنائية القائمة بين الرجل / والمراة متمركزة واستمر مجالها الفكري مستمرا في الحكاية، وكل التطورات السببية اللاحقة، هي نتيجة للاشارة الاولى والمبكرة لها. ولذا فان الشاب بايتي اضطرب وتملكه خوف وقلق " وانتفض الفتى كأن افعى لدغته " واستعاد – بوعي او لاوعي – دورها الاول المتراكم في القصص والحكايات والاساطير. واستفاد من التجارب التي حفظتها الذاكرة البشرية، وتصرف معها بوضوح تام ودفع عنه امرأة اخيه في غضب وثورة، وراح يلقي في اذنها اقذر النعوت واقبح الاوصاف أوواجهت الزوجة موقفا جديدا بعد ان رفض الشاب تلبية رغبتها في الاتصال الادخالي معها. وتمثل ذلك الموقف بالطريقة التي تتخلص منها في تلك الاشكالية الاخلاقية، واستبقت الامور تخوفا من فضح الامر لزوجها، ووقوع ما لا تريد وقوعه، فاستعانت بحكمتها ودهائها المعروفين ثقافيا. ومكنتها الحكمة الانثوية من حصد خلاص مؤقت، وكمحصلة نهائية تبدت الافعوانية والشيطنة في شخصيتها وحصل لها ما لم تتوقعه لانها موقنة باستحالة الذي حصل بعدها صارت ملكة وافشت سر زوجها الذي قتل لاحقا.
وعلى الرغم من التطورات الماساوية وفشلها في اشباع رغبتها، لم تحاول التخلي عن مظهرها الشبقي واتخذت وضعا يوحي بحزنها واكتئابها، لكنه بفضي بالقراءة الى كشف عن بقاء الرغبة مسيطرة عليها.

**** جيفري بارندر / الجنس في اديان العالم / ت : نور الدين بهلول / دار الكلمة / بيروت / 2001 / ص 235

وراحت المرأة تلطخ جسمها بالطين وتخدش ذراعيها وكفيها لتوهم زوجها اذ يعود بانها اثار معركة عامرة بالمقاومة ،وعندما حاول اخوه اغتصابها ورفضت ان تستسلم له..

وانطلق الى حجرتها وقد احس شيئا غير عادي، ففوجئ بها راقدة تبكي وتتوجع وكل جسدها تلطخه اثار طين وتراب ... والخدوش تغطي منه كل الذراعين والكفين ..

ان تلطيخ جسمها بالطين لم يكن علاقة بالحزن والندب كما كان عند العراقيين القدماء في الحضارة السومرية / الاكدية في وقت بكاء الاله دوموزي / تموزعند نزوله للعالم للاسفل، وانما كان ذلك في مستواه النفسي العميق. محاولة الاستعانة بالطين البارد للتقليل من شهوة الجسد الفائر، وترطيبه وانقاذه من النار المشتعلة فيه، نار الشهوة والغضب والحقد في ان. اما خدش الذراعين .. فانها تومئ في الطبقات العميقة على اثار لذية لحظة ما يمارس الفحل البطرياركي فحولته في ارواء واطفاء شبق الجسد الانثوي ،وهي من علامات تلك اللحظة الغائبة عن الوعي لان الاثنين ملتحمين معا في اتون الجسد، وترقب الانطفاء الشهوي بسقوط ماء الرجولة / ماء القلب كما اطلق عليه السومريون.

ان خسارة الزوجة للحظة التماس الجسدي بالاستلقاء والرقود، مثلما تهيأ للقاء زوجها او ممارسة المتعة معا وفقدانها لذلك دفعها الى تلطيخ جسدها بالطين البديل الاسطوري – الطين – الذي خلق منه الانسان في اسطورة الخلق السومرية المعروفة وما يدعم هذا التاويل هو كلامها مع زوجها في سرد تفاصيل الحادثة " ..... ولكن الاثم لا يريد ان يغيب عن نظرات عينيه، فاقسم ان ينالني بالقوة .. واذا امتنعت عليه راح يضربني ويشتمني حتى سقطت من الاعياء ثم راح يقسم ان يقتلني اذا بحت لك بما حدث .

ان تحليل النسق السردي لما قالته الزوجة يفهم منه اتيان الفعل الجنسي وتحقق الامر بين الاثنين اغتصابا وبالقوة وما يدل على ذلك هو الاثار التي تركتها معركة

اللذة بينهما على جسد الزوجة، الطين والخدوش التي ظهرت على الذراعين والكفين وهذا ما فهمه الزوج انوبو. لذا قرر الذي قام به ولم يتريث قليلا، لان الاشارات التي يحملها جسد الزوجة كافية وحدها لاقناع انوبو بالتحقق وبدون الكلام الاضافي المصرح به.

وما قام به الزوج بعد الاستماع لتفاصيل الحكاية ومعاينة الاثار هو الاستعداد لمعركة ذكورية بين الزوج / والاخ الاصغر، معركة هي فرصة الزوج المخذول بكرامته وشرفه الاسري، واول شيء قام به هو اخراج خنجره وشحذه ، كي يكون جاهزا للمنازلة وبالامكان تأويل ذلك :

الاستعانة بالخنجر وشحذه، باعتباره رمزا قضيبيا يعلن به ومن خلاله على قدرته في ممارسة الافعال الرجولية كما انه – الخنجر – علامة على حيوية فحولة الزوج وطاقته المتدفقة. وهو اشارة واضحة على الاستعلاء الذكوري، واقتدار على ممارسة فعل الجنس . فالخنجر / القضيب رمز مناظر للفحولة واحدهما ينوب عن الاخر ومع رموز قضيبية كثيرة.

ادرك الزوج انوبو بان معركته خاسرة مع اخيه لانه اضعف جسما – هكذا قالت الحكاية – ولذا استعان بالخنجر في معركته المنتظرة. لانه يخشى الفشل في نزاعه واياه ويتراكم الفشل بعد احباطه المستمر في اشباع حاجتها وتلبية ما يتطلبه الجسد الانثوي.

واراد ايضا من خلال الرمز القضيبي الاعلان عن قوته وامكانات جسده في اشباع لذة الزوجة اولا وليعلن من خلال الخنجر / القتل – الاستجابة الفورية / السريعة لما ارادته " اعرف انني اذ اخبرتك انما اضع حدا لحياتي التي سيسلبها مني عندما يعرف انني اخبرتك ... هذا اذا لم تسبق انت وتضع حدا لحياته هو نفسه... "

واذا اعتمدنا على الرمح – الذي ذكره الاستاذ شكري محمد عياد كنموذج للسلاح الذي استعمله انوبو في منازلة اخيه المرتقبة فان القراءة التأويلية له لا تختلف ابدا وانما يكون الرمح – ايضا – رمزا قضيبيا ينتهي بحشفة شبيه بحشفة القضيب .ولقد

كشف النقاب عن رموز قضيبية [*] على نطاق واسع في اليابان القديمة، كما هو الحال في الصين والهند وافريقيا وبلدان اخرى كثيرة، رغم انه غالبا ما تظهر اليوم على نحو مُمَّوه او في اشكال تجريدية ففي الاسطورة القديمة ان شكل الرمح المرصع يشبه [العمود – القضيب الذكري] وهذا العمود الذي ينتهي بكتلة كبيرة تشبه حشفة القضيب.

نصب قضيبية

البقرات هي التي سربت نية الاخ انوبو في الانتقام. وتمتعت البقرة بموقع مهم وارتحلت معها قدسيتها وصفتها الامومية التي عرفت بها حضارة مصر وبلدان الاشرق الادنى القديم . ولعبت البقرة المقدسة دورا في الديانات الوثنية لانها رمز للالوهة المؤنثة في المراحل المبكرة ، او هي صفة للانجاب والخصوبة وظلت هذه الصفة ملازمة لها خلال مرحلتها الحضارية حتى اللحظة التي شهدت فيها صراعا عنيفا مع السلطة البطرياركية / الذكورية وبعد انهيار سلطتها صار الثور بديلا لها في المرحلة الزراعية . وكانت الالهة ننسون ام الملك جلجامش ملقبة بالبقرة الوحشية :

انك الرجل الاوحد ، انت الذي ولدتك امك[*] ولدتك امك ننسون البقرة الوحشية المقدسة ورفع [انليل] راسك عاليا على الناس وقدر اليك الملوكية على البشر.

واختفت البقرة الوحشية في نص الملحمة بعد انتهاء المجال الفكري المباشر للالهة الام ننسون وكان المجال الجديد للثور السماوي العلامة الدالة على الالهة عشتار والتي استعانت بها بعد الشجار الذي دار مع الملك جلجامش، وطلبت من الاله " انو " انزال الثور لابادة الملك وصديقه " انكيدو " لكنهما تمكنا منه وقتلاه.

وعندما ظهر الاله الابن اخذ عن امه صفاتها القمرية [**] والرموز المتعلقة بها فصار يرمز اليه براس الثور الوحشي ذي القرنين الكبيرين وهناك من الادلة ما يشير ان

---

[*] جيفري بارندر / الجنس في اديان العالم / ت : نور الدين البهلول / سبق ذكره ... ص 143.

[*] طه باقر / ملحمة جلجامش / دار الشؤون الثقافية / بغداد / 1980 / ص 93.

تقديس الثور كان قائما في المستوطنات الزراعية الاولى في سوريا وخصوصا تل المربيط حيث يتزامن ظهور الثور مع ظهور الالهة الام، وظهر هذا الثنائي بعد الفي سنة في شتال حيوك، ثم في حضارة تل حلف / شمال سوريا.

وبقيت قرون الثور النيولتي تزين رووس الالهة الابناء حتى العصور المتأخرة فهذا هو الاله بعل / الكنعاني يظهر في رسومه ومنحوتاته بقرون بارزة نحو الامام وكذلك الاله المصري اوزيريس الذي تصوره بعض الاعمال الفنية براس الثور.

الهة السماء نوت في هيئة بقرة

ونقرأ في صلاه * سومرية الى الالهة انانا / عشتار في عصر سرجون الاول :

ايتها البقرة البرية الجموح

انت اعظم من كبير الالهة " انو "

وفي بعض الواح اوغاريت ، نجد الالهة عناة تحمل لقب العجلة وفي نصوص بعل وعناة الاوغاريتية نجد الاله بعل يضاجع الالهة عناة وهي في هيأة العجلة قبل ان تهبط الى العالم الاسفل ، وبقي لقب البقرة او العجلة يطلق على الام الكبرى وصولا الى السيدة مريم العذراء .

ان والدة الاله لما قدموها للرب عجلة ذات ثلاث سنين ، تقبلها زخريا كاهن الله ووضعها في الهيكل. وايضا :

فليسر يواكيم الجد ، ولتبتهج حنة، لانهما قدما لله السيدة البريئة من كل عيب كمثل عجلة ذات ثلاث سنين وفي التراتيل البيزنطية التي تتلى يوم الجمعة الجزينة نقرأ :

لما رأت العجلة ابنها معلقا على الصليب ناحت واعولت وايضا :

انت الان في باطن الارض ايها المخلص والقمر الذي انجبك يتلاشى حسرة لغيابك

** فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكرة .. ص 73.

* فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره .. ص 71 – 72.

ومنذ ان راى الانسان في القمر تجسيدا ربط في ذهنه[**] رمزيا بين قرون البقر وقرني الهلال ، وصور في خياله الام الكبرى على هيأة بقرة سماوية يرسم قرناها هلالا في السماء وقد استمرت هذه الصورة الباليولتية والنيوليتية مرتبطة بالام الكبرى في عصور الكتابة. فعندما لا تظهر الام الكبرى في الاعمال التشكيلية على هيأة البقرة الكاملة تظهر براس البقرة او بقرون البقر، وتشير اليها النصوص الميثولوجية والطقسية بلقب البقرة. فالالهة " نوت " المصرية التي هي قبة السماء كانت تصور في هيأة بقرة كاملة، والام المصرية " نوت " كانت تدعى بالبقرة السماوية والالهة " هاتور " كانت تظهر دوما برأس بقرة ، والالهة " ايزيس " ان لم تظهر برأس بقرة ، ظهرت وعلى رأسها قرنان كبيران غالبا ما تحتويان قرص القمر البدر بين طرفيها.

وكان للبقرة المقدسة تاثير واضح جدا في الديانة التوراتية التي تشكلت في مصر / والعراق وبلاد الشام . وبالامكان تلمس ذلك من خلال وجود البقرة والعجل الصغير في هيكل سليمان وكما عرضته التوراة . وهو من الادلة الكبيرة على وثنية التوراتين الاوائل[*] . والعجل الذي عبدوه في سيناء هو ابيس عجل مصر المشهور والبقرة التي [لا شية فيها] هي ربة السماء المصرية " نوت " وهي التي مثلتها مصر على هيئة بقرة.

بسبب الاصول المبكرة في مصر / والعراق كان للبقرة مجال فكري حيوي في حكاية " الاخوين " ولعبت دورا فعالا في الانقاذ، وتخليص الشاب " بايتي " ويتبلور اكثر نظام الالوهية في مصر ، استعانة بالقدرات الالهية والسحرية التي تمتعت بها الالوهة المصرية سابقا.

واستعان " بايتي " بالالهة رع حورس، وراح يهتف في رعب :

[**] فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره .. ص71.

[*] السير ولس بدج / الديانة الفرعونية / ت. د يوسف سامي اليوسف / دار منارات / عمان / 1985 / ص 29 .

ايها الاله الشمس .. يا من تنتصر للمظلوم على الظالم ، اقم الحواجز والسدود بيني وبين اخي .. !

واستجاب الاله لدعوات الفتى فاذا نهر هائل يجري بينه وبين اخيه .. تمتلئ مياهه بافواه التماسيح

بالامكان قراءة الدور الذي قام به الاله رع حورس قراءة اعمق تؤشر التاص الكامن في الحكاية مع اسطورة الاله الشاب حورس الذي خاض صراعا مريرا مع اخيه الشرير " ست " والذي انتصر فيه مؤخرا وصار الاله حورس انموذجا للاله الابن القتيل المتوازي مع عدد اخر من الالهة الشابة القتيلة والتي تستعيد حياتها مرة جديدة مثل ادونيس / سيبيل / ديونيسيس / يوسف / المسيح . وصار الاله حورس انموذجا للمنقذ المبكر في ديانات الشرق، بعدما واجه ملاحقة طويلة / وقاسية من قبل اخيه " ست " ولوجود التناظر الملحوظ بين بايتي و حورس اندفع الاله / الابن للاستجابة لدعوات الشاب الملاحق ، الاله حورس هو الذي خلص بايتي من القتل وكانت استجابته سريعة وتتبدى فيها القدرات السحرية لهذا الاله الذي حاز صفة اله الشمس / رع وحاز على اسم رع في ابتداء اسمه وتتضمن كلمة حورس معنى الاعالي فحورس هو ساكن الاعالي. وما قام به الاله حورس هو تجسيد لدلالة اسمه " عون " والذي عبر عنه معناه ومفهومه.[**]

والتي تعني عمود امه، او على الادق عماد امه، اي مستندها[*] وعونها. وقد يبدو ان " اون " المصرية تقابل " عون " العربية وهذا جائز لكثرة تعاقب العين والهمزة فان الجذر " عون " معنى السند والاعتماد [من : عَمَدَ] وقد جاء في مادة " عون "

[**] فراس السواح / الرحمن والشيطان / الثنوية الكونية ولاهوت التاريخ في الديانات الشرقية / دار علاء الدين / دمشق م 200 / ص 59 .

[*] د. علي فهمي خشيم / آلهة مصر العربية/ الدار الجماهيرية / مصراته وار الافاق الجديدة / الدار البيضاء / 1990 / ص 325.

العون : الظهير على الامر وهذا هو وضع العمود بالنسبة للبناء ، يسنده ويقيمه " كل شيء اعانك هو عون لك .

لقد كان عونا للشاب " بايتي " المتوازي واياه ببعض العناصر الخاصة بالحكاية ، لان " حورس " هيمن على مصر كلها بعد فترة الصراع الطويل مع " ست " واستجاب موضوعيا لطلب الشاب المضطهد وقدم النجدة له، وتمثل ذلك بشق نهر عريض مملوء بالتماسيح ، وهنا تناظر اخر وجديد مع اسطورة اوزوريس الذي ذهبت زوجته " ايزيس " للبحث عن اوصاله المبعثرة وقد استعانت بزورق مصنوع من البردي حتى تتمكن من المرور ببساطة / وسهولة عبر المستنقعات المنخفضة واشار العالم السير ولس بدج : بان التمساح لن يلمس من اتخذ زورقا من البردي وسيلة للانتقال لانه كان قد حمل الالهة " ايزيس " في يوم من الايام . وامتلأ النهر الذي شقه الاله الشاب رع حورس بالتماسيح يعني استحالة تمكن الاخ انوبو من العبور، لان النص لم يشر الى وجود قصب البردي في المنطقة التي كان الشاب بايتي يزرعها ووجدت القراءة بان التناص اكثر وضوحا بين " انوبو " و " بايتي " والاله " ست " ة " اوزوريس " وقد اضفى العقل الكتابي بعض الخصائص التي تميز بها كل من " حورس " و " اوزوريس " على الشاب " بايتي " واسقط – ايضا – بعض صفات الاله الشرير " ست " على الاخ الاكبر " انوبو " ويبدو " بايتي يوازي مع الالهين " حورس " و " اوزوريس " من حيث العناصر الخاصة بالالوهة الشابة " حورس " من حيث العناصر الخاصة بالالهة الشابة " حورس " والذي كان ملاحقا - ايضاً – من قبل عمه الشرير " ست " وتميز كذلك بخصائص ذات صلة قوية بعقائد الحياة / والانبعاث والخصوبة التي عرفها الاله " اوزوريس " الذي علم المصريين الزراعة، وهو اله للقمح [**] وتحتفل بموته وبعثه ، وهذا الاحتفال في جوهره احتفال بالبذر – الذي كان يقوم به بايتي وهو يقع بالضبط

[**] شكري محمد عياد / البطل في الادب والاساطير / دار المعرفة / القاهرة / 1959 / ص 129.

في الوقت الذي يكون فيه الفلاح قد فرغ من وضع البذور في الارض ففي هذه المناسبة كانت صورة الاله القمح ، معجونة من الطين والقمح ، تدفن في الارض ، ويصحب ذلك شعائر جنائزية، ليعود الاله الميت هناك الى الحياة ثانية مع المحصول الجديد.

وظلت عناصر الاله القتيل / اوزوريس / باقية في التداول / والتبادل الاتصالي ، ولم بستطع الزمن الغاء عقائده الزراعية ، المرتبطة بخصوبة الارض . لهذا نجدها قد تبدت مرة ثانية في حكاية الاخوين، وذلك بسبب طبيعة الحياة الزراعية وتماثلها، على الرغم من اختلاف المراحل الحضارية ،لان العناصر الاسطورية القديمة* تظل حية في العصر الجديد وتتطور لتتلائم مع الطقوس الجديدة والحياة الجديدة .

واهم التناصات الموجودة بين حكاية الاخوين واسطورة الاله " اوزوريس " هي خاصية الخصاء وقطع الذكورة الدالة على قوة الرجولة والمعبر عنها بافعال جنسية/ تخصيبية وفقدان الالوهة الشابة المذكرة لقضيبها يعني رمزيا تعطل الاله عن مجاله الحيوي في نظام الخصوبة الكلي، وبذلك تتوقف الحياة بشقيها الانساني / الحيواني – النباتي .

بعد العثور على الصندوق الذي كان فيه الاله اوزوريس قطع الاله الشرير " ست " اوصال الجسد الالهي ، وبحثت عنها الالهة " ايزيس " ووجدتها كلها ، لكنها لم تعثر على ذكورته التي اكلتها سمكة الدلتا.

واخذ الشاب " بايتي " سكيناً مصنوعة من القصب وقطع عضوه الخاص، والقاه في الماء ، فابتلعته سمكة شبوط، واغمي عليه وضعف فرثى له اخوه الاكبر اشد الرثاء، ووقف يبكي بصوت عال من اجله.

واندفاع الشاب " بايتي " لقطع ذكورته يفضي به الى محيط الالوهية الشابة التي عرفتها ديانات الشرق الادنى القديم ، ولم يكن قطع الذكورة ختانا كما قال

* شكري محمد عياد / البطل في الادب والاساطير / سبق ذكره .. ص 130.

الاستاذ شكري محمد عياد وانما هو فعل له طابع ديني خاص بالالوهة الشابة في الشرق. وهو – ايضا – نموذج مصغر من الطقوس والاحتفاليات الدينية التي تقام في موسم الربيع ، وتقديم القربان البديل للاله اوزوريس – من خلال قطع القضيب – كي يعاود صعوده مرة اخرى.

ان اندفاع " بايتي " لقطع ذكورته، محاولة منه للتماهي مع الاله " اوزوريس " الذي صار مثالا لعدد غير قليل من الالوهة الشابة في الشرق. لقد خسر ذكورته بفعل ارادي وصار انموذجا محايثا للاله اوزوريس، ومتمثلا في الالهين ديونيسس وسبيل. بسبب من موقفه الكهنوتي، عوضته الالهة/ وحصرا الاله حورس عن قضيبه المقدم قربانا للاله اوزوريس لان نص الحكاية يعلمنا بان الشاب " بايتي " قد نجح في اتصال ادخالي مع الزوجة التي خلقتها الالهة وقدمتها له.

وسنقدم عرضا لعناصر الالوهة الشابة المخصية حتى يتضح المجال التناصي بين " بايتي " والالوهة الشابة وما ذكرته الاساطير العديدة حول طقس قطع الذكورة، وما يكشفه من وظائف دينية بعيدة كليا عن طقس الختان الذي عرفه المصريون، كذلك من كونه فعلا دينيا له علاقة بالالهة الشابة.

تعطيل الالوهة الشابة

لا تقدم لنا اسطورة " اتيس " وطقوسه كثيرا من الاشياء* الجديدة على الارضية التي صارت مالوفة لدينا تماما. فالعذراء تحمل بقواها الاخصابية الخاصة دون معونة من ذكر. وليست الاشارة الى احتضانها غصنا من شجرة الرمان الا تعبيرا، باللغة السرية للاسطورة عن اخصاب الام نفسها بنفسها باحتضان رمز من رموزها وكهنة " سيبيل " الخصيان وطقوس الخصاء في اعيادها تذكرنا بكهنة عشتارت الكنعانية وطقوس الخصاء في معابدها.ومن الملفت للنظر ان نجد ذكرا لعشتارت وكهنتها الخصيان وطقوسها، في كتاب مشهور لكاتب روماني عاش في اواخر القرن

* فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره .. ص 337.

الثاني للميلاد، وهي الفترة التي ثبتت فيها المسيحية اقدامها وفي كل من سوريا وروما. ويقدم الكاتب الروماني في فصل الكهنة[**] الخصيان الوصف الحي التالي لجماعة من خصيان الالهة السورية وقد خرجت في موكب طقوسي وراء تمثال الالهة المحمول: كانت ملابسهم مختلفة الالوان وقد صبغوا وجوههم بالاحمر يضعون على رؤوسهم قلنسوات زعفرانية اللون ويرتدون جلابيب واحزمة حريرية ويلبسون في ارجلهم احذية صفراء اما الالهة فقد غطوها بعباءة حريرية خاصة، بدأ عازفو الهورن موسيقاهم العالية واخذ الكهان يلوحون بسيوفهم الضخمة وهراواتهم الشوكية وهم يتفاخرون كأن بهم مسا واذرعهم عارية حتى الاكتاف . وبعد ان مرننا بعدة قرى توقف الموكب امام بيت ريفي كبير، وعاد الكهنة الى الرقص فكانوا يرمون رؤوسهم نحو الامام بقوة تجعل شعرهم الطويل يغطي وجوههم ثم يهزونها بحركة دورانية سريعة تجعل شعرهم الطويل يتطوح في دائرة واسعة حول الراس وبين حين واخر كانوا يعضون انفسهم بوحشية فاذا بلغوا الذروة اخذوا بتجريح اذرعهم بسكاكين حادة يحملونها وكان واحد فيهم فاضت به النشوة فكان يطلق تنهدات من اعماق صدره وكانه امتلأ بروح الالهة فبدا كمن به جنة ثم راح يدلي باعترافاته عن اثام ارتكبها ويدعو يديه لايقاع العقاب به وبعد ان انتهى استل سوطا واخذ يجلد نفسه حتى سال دمه وهو يتحمل الالم بثبات يثير الدهشة اما انا فلم اكن في راحة من امري.

ويبدو [***] " اتيس " في الاسطورة ابنا لسيبيل تارة ، وحبيبا تارة اخرى ةتحكي رواية مولده ان امه العذراء قد حملت به بعد ان احتضنت غصنا من اغصان شجر اللوز او شجر الرمان وعندما شب الاله الصغير وصار فتى وسيما لم يستمتع بشبابه طويلا اذ ان حياته قد انقضت بميتة عنيفة عندما خصى نفسه تحت شجرة الصنوبر ونزف حتى الموت .. ويقال ان الاله تحول الى شجرة صنوبر اما طقوس " اتيس "

[**] فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره .. ص 338.

[***] فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره .. ص336- 337.

فكانت تقام في عيده السنوي يوم الثاني والعشرين من اذار تبدأ الاحتفالات في اليوم الاول بان يمضي الى الغابة فريق مخصص، فيقتطع شجرة صنوبر يلفها بالقماش الابيض كما تلف الجثة ويزينها بازهار البنفسج التي انبعثت من جراح الاله القتيل، ثم تعلق الى وسطها صورة لـ " اتيس " الشاب وتحمل الى معبد " سيبيل " حيث تنصب هناك ... وفي اليوم الثالث / يوم الدم ... يندفع الكهنة الى الحلبة يرقصون بجنون على انغام الات النفخ المختلفة الى ان يتوصلوا الى حالة من الوجد يفقدون معها الاحساس فيأخذون بتجريح انفسهم بقطع الزجاج والخزف او الموس ويغسلون بدمائهم مذبح الالهة وصورة الاله القتيل. بعد ذلك تبدأ طقوس اخصاء يتقدم الكهنة الجدد لتقديم ذكوراتهم على مذبح " سيبيل " .

واشار الاستاذ فراس السواح - ايضا - في كتابه مغامرة العقل الاولى الى ان كهنة " اتيس " ياخذهم رقص عنيف وحركات هائجة على ايقاع الموسيقى الى ان تستبد بهم النشوة الدينية الجامحة فياخذون بتجريح انفسهم بالالات الحادة فتنبعث منها الدماء وتغطي المذبح والغصن المقدس. وهنا يقوم الكهنة المبتدئون باخصاء انفسهم ويرمون ذكوراتهم المفصولة تحت قدمي الاله المنتصب [انتصاب التمثال بديل للذكورات المقطوعة][*] وربما قام اخرون من المتعبدين المشاركين بالاحتفالات بالفعل نفسه في نوبة هستيرية من الوجد والانجذاب فيقوم الواحد منهم باخصاء نفسه ويركض في شوارع المدينة نازفا متألما ومن الجدير بالملاحظة ان توقيت هذه الاحتفالات بقيامة اتيس يقارب الاحتفالات المسيحية بالجمعة الحزينة.

ان الاله الشاب " اتيس " اول من درب على رياضة الالهة[**] " ريها " الروحية . ان الطقوس كلها التي كان يقيمها الفريجون و " الليديون " كان يلقنهم اياها "

---

[*] الملاحظة بين القوسين من عندنا.

[**] لوقيانوس السّمياطي / مختارات من محاوراته واعماله / ت : سعد طائب / مفيد عرنوق / دار الرشيد / بغداد / 1979 / ص 241.

اتيس " فمنذ ان خصته " ريها " رغب عن حياة الرجولة اخذاً شكل امرأة مرتديا ثياب النساب متجولا في بقاع الارض محتفلا بالطقوس الدينية.

وذكر " لوقيانوس السمياطي " بان الاله الشاب ديونيسيس قد كتب على عمودين في مدخل معبد الالهة " هيرا " في سورية.

هذان العمودان وضعتهما انا ديونيسيس باسم " هيرا " زوجة أبي .. ويقوم اليونانيون تكريما لدانيسيوس بوضع اعمدة في اعلاها اشخاص خشبية صغيرة، لها اعضاء تناسلية ضخمة، وهذه الاشخاص يسمونها دمى ، تحركها الحبال . وفي الجهة اليمنى من الهيكل الشيء نفسه: يوجد شخص صغير من النحاس الاحمر جالس وله عضو تناسلي ضخم.

هذا التاكيد على ضخامة الذكورة له ارتباط وثيق بنظام الالوهة الشابة القتيلة، وطقوسها الدينية التي تكاد تكون متماثلة مع بعضها البعض. ويلاحظ بان عناصر هذا النظام تحتوي الضدين في آن، الاخصاء وقطع الذكورة، واشاعة الرموز القضيبية وعلامات صريحة للذكورة. والتاكيد على ضخامة القضيب، تعبير عن الدور المهيمن له في ديانات الشرق الادنى واعتباره مركزا في نظام الخصوبة وعقائد التجدد والانبعاث، كما يعني اهمية المجال الذي اسسته الالوهة الشابة في الشرق بحيث صار لها عدد غير قليل من الاعياد والاحتفالات السنوية، ذات الصلة مع التجدد الذي يوميء اليه القضيب ويبشر به. وتطورت هذه العناصر وتحولت الى عبادة قضيبية، تميزت بخاصيات ووظائف جديدة، وان ظلت متمحورة في المجال الخصوبي.

وفي حكاية عن " ستراتونيس " زوجة احد الملوك الاشوريين* والتي عاشت قصة حب عارم - مماثلة لما في حكاية الاخوين. مع شخص يدعى " كومبابوس " وتدلهت به حتى سلب عقلها، واحتاطت الملكة للامر واخفت تدلهها، بيد انه ما

* لوقيانوس السّمياطي / مختارات من محاوراته واعماله / سبق ذكره ، ص 246 / سندرس هذه الاسطورة في الفصل الاخير

ان اشتد بها ومضت تذرف الدموع مدرارا في وضح النهار وهي تنادي " كومبابوس " مظهره انه غدا بالنسبة لها كل شيء. واخيرا واذ لم تعرف ماذا تصنع وهي في هذه الحال من جنونها، بحثت عن مناسبة تتوسل فيها بيسر الى من تحب ... ومضت بعد العشاء الى الحجرة التي يسكنها " كومبابوس " مستعطفة اياه مقبلة ركبتيه معلنة له هيامها به. فتلقى " كومبابوس " اعترافها في قسوة ، رافضا طلبها ، مبكتا اياها سكرها فهددته " ستراتونيس " بانها ستعرض نفسها لاشد المتاعب ، فما كان من " كومبابوس " الا ان كشف مرتعشا عن حقيقة وضعه ، قاصا عليها ما عاقب به نفسه، واذ رأت ما لم يكن في حسبانها .

هدأت ثورتها دون ان تقلع عن حنانها، متعزية بالعيش الدائم قرب حبيبها، كاتمة هواها الذي لم يرتو.

ما ان رأت " ستراتونيس " عدم جدوى توسلاتها، كتبت الى زوجها تشكو " كومبابوس " بانه مس شرفها ... وحين رأى نفسه يوشك ان يساق الى العذاب ، بدأ الكلام مطالبا بامانته : قائلا : ان الملك يأبى اعدامه من اجل عمل مشين واهانة لحقت بعرضه ، بل لرغبته في امتلاك ما كان قد سلمه اياه قبل سفره.

عندها دعا الملك كاتم سره، وامره بان ياتي بما وضعه تحت حراسته ، وما ان تسلم الاناء حتى فض " كومبابوس " الختم واعلن للملأ وكان يحويه ، شارحا وضعه الذي بلغه قائلا: ايها الملك ، لقد كنت اخشى ما حصل ولذلك ذهبت مرغما الى حيث اردت ...

وندت عن الملك صرخة مدوية وراح يعانق " كومبابوس " وهو يذرف العبرات هاتفا :

لماذا الحقت هذا الضرر العظيم بنفسك يا " كومبابوس " ولماذا انت وحدك من بين سائر الخليقة اقترفت بحق نفسك مثل هذا العمل. ليس في ميسوري ايها التعس الموافقة على ما اذيت به نفسك، وانها لمهانة تأبى الالهة عليك تحملها. واغدو شاهدا عليها. . انني لم اكن حقا بحاجة الى هذه البراءة بيد انه ، لما كان ثمة اله شاء ذلك

، فاني سأخذ بثأرك وادين بالموت سائر من افترى عليك، وبعدها ستنال هدايا فاخرة ، اكداسا من الذهب والفضة ، وثيابا سورية وخيولا اعدت للملوك، وستدخل علينا منذ الان بدون استئذان، ولن يقدر احد على ابعادك عن نظري، حتى ولو كنت راقدا مع احدى زوجاتي. هكذا تكلم الملك فنفذ ما وعد به. اما الوشاة فقد اقتيدوا الى ساحة الاعدام ، وانهالت اثر ذلك على " كومبابوس " النعم كما وثق الملك صداقته به ...

واعترافا بفضيلة " كومبابوس " وما اداه من خدمات طيبة، سمح له الملك بان يقيم باسمه في الهيكل تمثالا من النحاس الاحمر وظهر فيه " كومبابوس " بشكل امرأة بثياب رجال.

وقيل بان اصدقاء " كومبابوس " الخلص وافقوا على اقتسام شقائه، فخصوا انفسهم وسلكوا طريق الحياة التي سلكها هو. ويقال ان " هيرا " التي احبت " كومبابوس " اوحت الى الكثيرين بفكرة الاخصاء ، لئلا يظل حبيبها وحده يعاني شقاء حرمانه من رجولته.

وبعد ان ترسخت هذه العادة، استمرت . ففي كل عام وفي الهيكل نفسه ثمة كثيرون يرتضون الاخصاء، اما تعزية او مرضاة لـ " هيرا " وبعد ان يخصوا يرتدون لتوهم ثياب نسائهم ويزاولون اعمالهم. واتت امرأة اجنبية تزور المعبد وحين رأت " كومبابوس " فائق الجمال ، مرتديا ثياب الرجال ، هامت به حتى الجنون ، وحين علمت بانه ليس مكتمل الرجولة انتحرت، وبعدها ارتدى ثياب النساء ، حتى لا تغتر به في المستقبل امرأة اخرى. وذلك هو السبب في ارتداء خدام المعبد ثياب النساء. وفي عيد " الحطب" السوري * يجتمع في المعبد عدد غفير من الجماهير مع عدد ضخم من الخصيان والاشخاص المقدسين/ فيقيمون الطقوس المقدسة الخاصة : يتأبطون سواعد بعضهم ضاربين على ظهورهم، وقد وقف الموسيقيون امامهم

* لوقيانوس السّمياطي / مختارات من حوارته واعماله / سبق ذكره ص 259.

يعزفون في الناي، وحولهم عدد لا يقل عن هؤلاء، بقرع الطبول ، كما ان قسما اخر يرتل الاناشيد المقدسة.

كل شاب يرغب في خدمة المعبد ينضو عن ثيابه، ويتقدم صارخا بقوة وسط الجماهير، ثم ينتضي خنجرا خصص منذ اعوام عديدة لهذه الغاية ، يخصي نفسه ، ثم يمضي مهرولا في قلب المدينة، حاملا بيده ما بتر، فيرمي بهذا العضو في احد الدور ، وعندها يضطر من في الدار الى منحة جلبابا ، وتلك هي تقاليد الاخصاء.

ونستطيع الاستدلال لما يعنيه الاخصاء الذي عرفته عدد من الديانات، وبلورة رأي مختلف - تماما - عن رأي الاستاذ شكري محمد عياد :

يمثل الاخصاء طقسا دينيا للعاملين الشباب في المعابد، في محاولة للتماهي هي مع الالوهة الشابة التي مارست طقس الاخصاء او موتها الموسمي / المؤقت. ويبدو من خلال الاحتفالات المصاحبة لهذا الطقس صفتها الجماعية ، واختيار مراكز المدن من اجل الاعلان عن هذا الطقس الذي يدفع بالشاب المخصي نحو المعبد والاقامة فيه ، بعد ما تخلص من ذكورته / شهوته والابقاء على الروح نقية وطاهرة بعدما ما تخلضت من الدنس الذي تسببه الذكورة. اضافة الى ان هذا الطقس يوميء للقراءة بوجود ضرورة دينية مقدسة لحيازة عناصر الالوهة المؤنثة وذلك من خلال الاخصاء وارتداء ملابس النساء.

اعتقد بان هذا الطقس هو الجذر المبكر للعبادات السرية التي تصاحبها الموسيقى، والضرب بالالات الحادة او الصراخ من اجل الوصول الى مرتبة السمو الروحي الذي لا تعنيه الذكورة ابدا. لان المخصي شاب منذور، وفي احيان يحوز الشباب الخصيان على رموز قضيبية تعوضية، او اغصان مورقة ذات دلالة واضحة لنظام الخصوبة.

يعني الاخصاء موتا بايولوجيا وبهذا يتماثل المخصي مع الالوهة الشابة القتيلة الهابطة الى العالم الاسفل والمعاودة لانبعاثها مرة جديدة.

لايمكن اعتبار القطع الكلي للذكورة ختانا، مثلما لا يمكن اعتبار ذلك الطقس من طقوس العبور، وانما هو طقس اوجد اختلافا بين الخصائص الفسيولوجية / والبايولوجية والرجولة .

اعتقد - ايضا - بان ضياع ذكورة الاله اوزوريس هو الاصل لهذا الطقس، المرتبط بالالوهة الشابة وخدم المعبد الشباب. كما يفضي بنا طقس الاخصاء الى العلاقة الروحية مع الاله / الرب يسوع والاكتفاء بالطابع الديني المباشر / والعمل الكهنوتي، حيث اتسع هذا التقليد في الديانة المسيحية ، وشمل الرجال والنساء، لان الرهبنة شكل من اشكال الاخصاء الجسدي والاكتفاء بالعلاقة المؤسسة بين الراهب / الراهبة وبين الرب . وبذلك تضاءل دور الجنس في الديانات التي صعدت عناصرها الحيوية نحو المسيحية - مثلا - لان الممارسة الجنسية - قبلا - مشاركة ذات وظائف دينية .

ان نظام كهانة الام الكبرى القائم* على الاخصاء، قد يبدو كثير الغرابة اذا قارناه بنظام الرهبنة والكهانة القائم على اخصاء رمزي في الديانة المسيحية، حيث يحرم رجال الدين على انفسهم كل زواج وممارسة جنسية مدى الحياة ، وهو نظام مبني على تعاليم السيد المسيح نفسه. نقرأ في انجيل متى : ان موسى من اجل قساوة قلوبكم ، قد اذن لكم ان تطلقوا نسائكم ولكن من البدء لم يكن هكذا واقول لكم، ان من طلق امراته الا بسبب الزنى وتزوج باخرى يزني، والذي يتزوج بمطلقة يزني. قال له تلاميذه ان كان هكذا امر الرجل مع المرأة فلا يوافق ان يتزوج فقال لهم ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين اعطي لهم ، لانه يوجد خصيان ولدوا من بطون امهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا انفسهم لاجل ملكوت السموات. من استطاع ان يقبل فليقبل.

* فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره ... ص 238.

عرفت الاله انانا / عشتار شبابا مخصين في معبدها وسط مدينة اوروك، لابل مخنثين وقد اشارت ملحمة جلجامش الى ذلك بوضوح:

اجل تعال يا " انكيدو " الى " اوروك " المحصنة[**]

حيث يلبس الناس ابهى الحلل

وفي كل يوم تقام الافراح كالعيد

حيث ... غلمان ... الاسينو

و " اسينو"صنف من الفتيان كانوا ملحقين بالمعبد الخاص بالالهة انانا / عشتار.

وكما سار الانسان وراء نزعة الموت[*] الى الحرب تحت راية عشتار، فقد مارس ايضا اقسى افعاله المازوكية تحت رايتها ومن اجل ارضائها، وذلك من خلال الطقوس الدموية التي تتم في اعيادها السنوية، تلك الطقوس التي تبلغ قمة عنفها ومعارضتها لمبدأ الحياة، بفعل الخصاء الذي يقوم به الرجال على مذبح الالهة، واهيبينها ذكورتهم، وكل حياة ممكنة سوف تنشأ عنهم. ان القربان البشري هو تغذية للموت بانسان حي، اما الخصاء فانه تغذية للموت بنسل لم يولد بعد، ولن يولد، انه تعطيل لوظيفة الحياة ذاتها بتعطيل وسائلها واسبابها.

ان تحقق طقس الاخصاء، يعني مغادرة المخصي لمحيطه الذكوري ودخوله الى المحيط الانثوي، لانه خسر العلامة - القضيب - الوحيدة الدالة على رجولته، ولذلك يقدم صاحب الدار الذي يرمي فيه المخصي ذكورته ثوبا نسويا وارتداء الثوب، مع الاخصاء البايولوجي، هو تحول نحو مجال الالوهة المؤنثة.

وعندما يهدأ صخب الاحتفال، وتسكن اصوات الطبول[**] والصنوج، تمضي السكرة ويصحو الشاب ليكتشف ان عشتار قد سلبته رجولته الى الابد والحقته بجيش

[**] طه باقر / ملحمة جلجامش/ دار الشؤون الثقافية / بغداد / ط4 / 1986.

[*] فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره ... ص235.

[**] فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره ... ص236.

الخصيان والذي يعج بهم معبدها واطرافه. وتشير اسطورة إيرا / اله الطاعون البابلية وصفا لمدينة عشتار / اوروك بانها :

مدينة البغايا المقدسة والغلمان الخصيان

وفي وسط معبد عشتار الذي يعج بالمخنثين

ممن نالت الالهة من رجولتهم

والى عهد قريب ، كانت الالهة انانا / عشتار تنال من رجولة الذكور.

ان طقوس الاخصاء [***] تضعنا مرة اخرى امام عشتار [الالوهة المؤنثة] سيدة التناقضات. فكهان الالهة خصيان متبتلون، نذروا للالهة طهارة جنسية كاملة ، اما كاهناتها فبغايا مقدسات لا ينقطعن عن ممارسة الجنس، موهوبات لكل الرجال. داخل معبد الالهة يخصى الرجال ، وحول معبدها تستمر الدعارة المقدسة في كل الاوقات. تركيب محير لا يمكن فهمه الا على ضوء الصراع والتعاون القائم بين القوتين العظيمتين المتجسدتين في الام الكبرى، قوة الموت وقوة الحياة. ففي اطلاق جنسانية الانثى توكيد على مبدأ الحياة وفي كف جنسانية الرجل توكيد على مبدأ الموت. ومن ناحية اخرى فان الخصاء الذي يقوم به الكهان وبعض خاصته العباد، هو نوع من التوحد الصوفي بالروح الانثوية / الكونية وتوكيد على اولوية الانوثة وتبعية الذكورة ضمن المؤسسة الدينية العشتارية التي تشكل جزيرة امومية في بحر الثقافة الذكورية.

ان الخصيان يكررون امام الام الكبرى دور الاله تموز الذي كان جميلا، غضا مؤنث الصفات، خاضعا لعشتار، مسلما لها قياده ، ودور اتيس الذي خصى نفسه تحت شجرة التين التي ترمز الى " سيبيل " ،ودور " اوزوريس " الذي قام اخوه " ست " بقتله وتقطيع جسده اربع عشرة قطعة وجدتها " ايزيس " وجمعتها فبعثت فيها الحياة عدا عضو الذكورة الذي ضاع الى الابد.

[***] فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره ... ص 237 /238.

يطغى البعد الاجتماعي / الاخلاقي على فعل بايتي في الاخصاء لانه اكتفى بذلك ولم تبدو عليه عناصر انثوية او وظيفة من وظائفها المعروفة، بل تجاوز هذا كله ، بعد وصوله الى وادي الطلح والتفاصيل الاخرى معروفة.

وعلى الرغم من ان حكاية الاخوين لم تشر لعري " بايتي " لكننا نجد في الطقوس المماثلة وجود العري، علامة من علامات الالوهة الشابة المذكرة وكهنتها وخدمها، ولذا كان المخصي يطوف عاريا لحظة قيامه بالطقس الديني لانه لا يجوز الابقاء على ثوب المخصي بل يجب استبداله ، ويكون الثوب النسوي تعويضا له ، بعدما تغيرت عناصر الرجل الذكورية، ويبدو بان ذلك له علاقة مباشرة بالقداسة والدناسة. ولم يكن للعبد او لغيره من غير المقدسين * ان يدخل موضعا مقدسا دون ان تخلع عنه ثيابه لان الثياب باكتسابها القدسية بمجرد دخولها نطاق الموضع المقدس لن يكون لها اي نفع من بعد في حياته العادية. وفي حالة الثوب الذي كان ملطخا بدم تقدمة الخطيئة نجد ان الحرمات الناتجة عن الاتصال بالاشياء المقدسة يمكن ازالتها بالغسل كنظيرتها الناجمة عن الاتصال بالنجاسة.

واعتقد بان التغير الحاصل من نوعية الثوب الدلالية لها صلة مباشرة بالانوثة التي حاز المخصي على احد عناصرها ، وهو التعطيل الجنسي والاعتناء الروحي والدخول في فضاء المعبد الداخلي ، وانتسابه الى المحيط المقدس. ولابد من الاشارة الى ان الثوب الاحتفالي [الذي كان المنذور بذكورته مرتديا له] تنتهي قداسته لحظة تنفيذ الطقس الديني ويتوجب نزعه واستبداله بثوب اخر، يوفر له الجسد المضحي قداسة جديدة فيها شيء غير قليل من جذرها الاومي الاول.

والتضحية بالذكورة في واحدة من مستوياتها العميقة هي محاولة للفداء نيابة عن الاله ، والالهة الشباب كثر في كل ديانة من ديانات الشرق لان تضحية الاله بذكورته يعني موته المؤقت ونزوله الى العالم الاسفل وصعوده ثانية وما بين النزول

---

* روبرت سمث / محاضرات في ديانة الساميين / ت: عبد الوهاب غلوب / المشروع القومي للترجمة / القاهرة / 1997 / ص 499.

والصعود / الانبعاث يقتضي الطقس ، استمرار الندب والحزن والتجريح وحتى لا تتكرر هذه الطقوس يقوم فرد او مجاميع من الشباب باخصاء ذكوراتهم

قال فرويد بان الاب المقتول الذي كان الابناء يخشونه، ويرهبونه، ويجلونه في وقت واحد كان كل منهم يتمنى لو يحتل مكانه ، لذلك اصبح اكله ممثلا في خروف في موعد محدد كل عام، هو محاولة للتشبيه به من خلال التمثيل الجسدي لقطعة منه. وفي الوقت نفسه اصبح هذا الموعد عيدا يحيي فيه الابناء ذكرى انتصار حلفهم على الاب / الملك القاسي .

وقد استل الاستاذ شكري محمد عياد اراء فرويد كاملة واجرى عليها تطبيقا متناظرا مع حكاية الاخوين، واعتبر فعل " بايتي " بقطع ذكورته بديل رمزي عن الخصي الذي كان الاب كلي القدرة يعاقب به ابناءه فيما غبر من الزمن. اما الاستاذ د. سيد القمني، فانه يختلف مع فرويد ويؤكد بانه ليس ختانا فقط، بل كان يصل حد اخصاء كامل يقوم به الانسان لذاته بذاته في احتفالات الالهة الشهيدة، كما كان يحدث في احتفالات الحزن على الاله الشاب ادونيس في لبنان. لذا فان قراءتنا للاخصاء تتمحور في كونه فعلا دينيا تمارسه الالوهة الشابة وكهنتها وخدمها ، كذلك كهنة الالهة عشتار كما انه شكل من اشكال التعبير عن التضحية والاستعداد للفداء. وكان هذا الشكل الطقسي مالوفا ومعروفا في الحياة الرعوية التي صاغت معتقداتها وطقوسها السلطة الابوية / البطرياركية

وكان معنى التضحية* ولم يزل يحمل معنى الفدية التي يفتدى بها الانسان او المجتمع او الوطن. ويحمل - ايضا - معنى التضحية الاختيارية بالذات، من اجل سلامة الجماعة كلها وفي هذا الحال يتحول عمل الفادي وفي نظر الناس بعد موته الى قمة الاعمال سموا وقدسية حتى ان تضحيته في كافة الاديان تقريبا، ترفع عنه كل

* د.سيد القمني / الاسطورة والتراث / دار سينا / القاهرة / 1992/ ص102

الخطايا، حتى تصل قداسته حد الملائكية، ويطلق على عمله في هذه الحال " استشهاد " بمعنى الموت امام الجميع وهم شهود يستشهد بهم على مجد عمله وفدائه.
ويمكن اعتبار الاخصاء " قطع الذكورة " بديلا جزئيا لطقس التضحية الادمية، والاكتفاء بالجزء تعويضا عن الجسد الكلي الذي كانت الاقوام السامية تقدمه الى الالهة. ومن منظور مجرد[**] يبدو ان العرب لما كانوا يقبلون الاستعاضة عن الانسان بحمل وتطور مبدأ الاستعاضة واخذت الشعوب ما يماثل بنيتها الفكرية والدينية.
هناك تعويض الهي [في بعض الحالات] للذكورة المقطوعة، ومكافأة الشاب الذي مارس فعل الاخصاء، وقد تحقق تعويض في حكاية الاخوين لذكورة الشاب " بايتي " ومنحته الالهة زوجة جميلة جدا، واعادت له ذكورته ، وطاقاته الجنسية.
ان اقامة تمثال من البرونز الاحمر لـ " كومبابوس " له دلالة تنطوي على الدم / التضحية التي قام بها وظلت كل التماثيل المشابهة لذلك نحاسية حمراء، تعبيرا عن طقس الفداء، لان قطع الذكورة ، موت، وتضحية فردية واحيانا جمعية، وهي بذلك بداية للفداء الفردي. واجد بان الاخصاء الذي مارسه " كومبابوس " مزدوج السبب، اولهما ديني وثانيهما سياسي. وفعل الاخصاء حقق له تماثلاً بين شكله الجميل جدا وبين تعطله البايولوجي وصار مظهره الخاجي دالا على وجود صفات انثوية في شخصيته.
ومن الممكن قراءة طقس الاخصاء في واحدة من مستوياته العميقة كمحاولة تدميريه لم تصل حدها[*] الاقصى ببلوغ الموت واهلاك النفس فانها تقف به عند الالم ونفي اللذة وهو اقصى ما يمكن للخصي ان يعارض به جريان الحياة الحر، من دون ان يتسبب في ايقافه كليا، وهنا تتحول نزعة الموت الى نزوع مازوكي يسعى

[**] روبرتسن سميث / محاظرات في ديانة الساميين/ ت: د. عبد الوهاب غلوب
م" د. محمد خليفة حسن / المجلس الاعلى للثقافة / القاهرة / 1997 / ص 397.

[*] فراس السواح / لغز عشتار / سبق ذكره ... ص 235.

الانسان من خلاله الى تعذيب نفسه وايذائها، وايقاف بعض فعاليات الحياة في جسده.

البطولة وعناصر الالوهة

لقد تميزت شخصية الشاب " بايتي " بسمات خاصة وفريدة، على الرغم من انه كان وحيدا في بداية وصوله الى وادي الطلح فقد تجانس مع المكان وتألف واياه وشعر بالسعادة لوجوده هناك، منشغلا بمطاردة الحيوانات منذ الصباح وحتى المساء. واول ملاحظة حول الالفة مع المكان، هي انه استطاع ان يبني بيتا انيقا، ليؤسس صلته مع المكان الجديد، الذي صار بديلا عن مكانه الاول، والذي غادره مرغما ومكرها. لكن الالهة ادركت بان وحدته قاتلة حيث قالت له:

الا تؤلمك العزلة يابايتي؟ اليس من الخير لك ان تعود الى بيتك بعد ان ثأر لك اخوك من امرأته؟

وسجد " بايتي " للتاسوع المقدس. والتمس من الالهة ان يتركوه في وادي الطلح حيث يعيش ...

ورأى " رع حورس " ان يخفف عن الفتى وحشة العزلة. فامر الاله الخلاق " خنوم " ان يخلق له امرأة تشاركه الحياة.

واوضح بان التاسوع، اتجه نحو وادي الطلح لمعاينة " بايتي " وسفرة التاسوع، تعبير عن موقف الهي / تكافلي وتضامني مع الشاب المتهم وزرا واقتراح الالهة / التاسوع عودته الى اخيه، محاولة لترميم العلاقة بين الاخوين، خصوصا بعد انتقام الاخ الاكبر / الزوج لاخيه " بايتي " بقتله الزوجة الغادرة والكاذبة. ولكن " بايتي " اعتذر.

كان دور التاسوع مثيرا للانتباه. في زيارته لوادي الطلح وتخليق امرأة " بايتي " لانها تعني فيما تعنيه مباركة للشاب الذي انقذ نفسه بالابتعاد عن الاخ الاكبر وزوجته. وهذا الدور مكمل للدور الذي لعبته الالهة بواسطة البقرات المقدسات

وللاتي تقمصن عدة شخصيات للالوهية المؤنثة، وكذلك بصعود النهر حدا فاصلا بين الاخوين.

ومن الالوهات المؤنثة ، الملقبة بالبقرة هي :*

نيت ----- الالهة الام الحامية / القوّاسة

محت - ورت ----- الفيضان العظيم ---- بقرة السماء

رنوت ---- الهة الحصاد / الهة الرضاعة

نوت ---- الهة السماء

ساتت ----- الهة الماء والرطوبة

واضفى الفكر المصري هيبة عالية ، ومنح الالوهة المؤنثة صفة الخصوبة، مشبها لها بالبقرة، وحازت على قدسية واضحة وكبيرة.

من الالوهات الملقبات بالبقرة واللاتي لعبن دورا في الديانة المصرية القديمة :

البقرة السمكة (لاتيس)

البقرة احت

البقرة محتاورت (السباحة العظمية)

البقرة اوريرت

كما ان ملائكة السماوت السبع، الذين يسبحون حتى قيام * الساعة هم في الحقيقة على شكل صور متعددة، واول هذه الملائكة على صورة البقر.

وحرمت الديانة الهندوسية شرب لبن البقرة حتى اليوم العاشر من ولادتها، وحرمت لبن البقرة الحارة، التي تعطي لبنا مرة واحدة في اليوم، وكذلك التي ليس وراءها عجل.

---

* خزعل الماجدي / الدين المصري / دار الشروق / عمان / 1999 / ص 54

* محمود سليم الحوت / في طريق الميثولوجيا عند العرب / دار النهار للنشر / بيروت/ 1979 / ط2 / ص 206

ومارست البقرة - كما اشار لذلك الطيب تيزني - دورا ملحوظا في ذلك التصور الالهي، وذلك ضمن موقعها من الذهنية الطوطمية. والمرأة لها هنا ، بطبيعة الحال ، اهمية خاصة ، فهي تمثل ، مع الطوطم " الحيوان " والطبيعة، توائم واوجها مختلفة لواقع واحد، هو " الخصب " الجنس الطبيعي " البايولوجي "

رسالة البقرة لانقاذ " بايتي "

ان الدور الذي اتخذته البقرات في اخبار بايتي بما قرره اخوه انوبو يمثل وظيفة من وظائف الالهة الام المخلقة . فكل من الالهات / البقرات لهن وظيفة ذات صلة بالخصوبة وتخليق للالوهة المذكرة مثل البقرة احت واوربرت، وافشاء السر لـ بايتي تعبير عن وظيفة امومية و يمثل بايتي بالنسبة لاي من البقرات انبا.

وارتباطا مع هذا الدور ، برز التاسوع فاعلا، مكملا ، ومطور ما قامت به الالوهة المنثة عبر رموزها.

ويتكون التاسوع المصري تاسوع عين شمس من الالهة التالية :

الاله رع

الاله شو " الهواء "

الاله تفنوت " الرطوبة "

الاله جب " الارض "

الاله نوت " السماء "

الاله ست " الصحراء والليل "

الاله نفتيس " الشفق "

الاله اوزيريس " الخضرة والنهار "

الاله ايزيس " الفجر "

اما الاله الذي خلق فهو " خنوم " اله الشلال وهو اله محلي في الاقليم الاول من اقاليم الصعيد ، واشتق اسمه من فعل " خنم " اي " يخلق " وهذا يشير الى انه كان

الها خالقا منذ البداية ولم تسبغ عليه صفة الخلق كغيره من الالهة وكان خالقا للالهة والبشر والنيل و " صانع كل ما هو كائن، وكل ما سيكون، وكان الكبش الافريقي رمزه، ولذلك صُور في هيأة رجل له رأس الكبش* وامامه دولاب الفخار، حيث يضع فيه ما يشاء من الالهة والناس ، ان الاله خنوم بطبيعته المائية مع دولابه الطيني او الفخاري يشير الى ان الاله هو اله مائي يستعمل الطين لخلق ما يريد وهذه المفارقة اخرجت الاله الخالق في مصر من طبيعته الشمسية.

وكان ثالوث مدينة " آبو " يتكون من " خنوم " وزوجته " عتقت " " سيدة ماء النيل " رمزها الغزالة، وزوجته الثانية " ساتت " الهة الماء والرطوبة ورمزها البقرة.

خنوم - رع عجله الفخاري ، الذي اسس الارض بساعديه الاله الذي يوحد الابدان في بطن الام ، البناء الذي يعمل على ازدهار الفرخين، الذي يحي الكائنات التي ما زالت في طفولتها بفضل نسمة فمه ، الذي يغمر البلاد بامواه الـ [نوو] الدافقة، في حين تحيط به الدائرة السائلة الكبرى، ويحيط به بحر الاطراف العظيم.

ولانه " خنوم " خلق انثى فانها يجب ان تكون شبيهة بالالهة ايزيس ولو كان المخلوق ذكرا لصار شبيها باله مثلما حصل في ملحمة جلجامش عندما طلب سكان اوروك الاله " انو ان يخلق شخصا قويا يقف ندا للملك جلجامش فطلب الاله " انو " من الاله الام الاكدية " ارورو" ان تخلق شخصا قويا يقف ندا للملك جلجامش شخصا قويا. وفعلا اخذت قليلا من الطين واللعاب وخلقت انكيدو القوي الذي كان مثل اله :

انه اقوى من في البلاد ، وذو باس شديد*

وهو في شدة باسه وقوته مثل عزم انو

---

* خزعل الماحدي / الدين المصري / سبق ذكره .. ص 79.

* طه باقر / ملحمة جلجامش / سبق ذكره .. ص 80.

وكذلك الملك جلجامش منحته الالهة بعضا من عناصرها وصفاتها ووظائفها على الارض

ثلثاه اله ، وثلثه الباقي بشر

لقد صممت هيأة جسمه الالهة العظيمة

بعد ان خلق جلجامش واحسن الاله العظيم خلقه حباه " شمش " السماوي بالحسن وخصه " ادد " بالبطولة جعل الالهة العظام صورة جلجامش تامة كاملة

الملحمة / ص 77

شجرة انساب تاسوع

عين شمش* رع [اله الشمس في اون] تاسوع اون شوتعنوت"الهواء" " "الرطوبة" نوت الارض " السماء "

اوزيريس الزيس ست نفتيس

"الخضرة والنهار" "الفجر" "الصحراء والليل الشفق "

ان العلاقة بين التاسوع وبين بايتي علاقة حرة وغير خاضعة لسلطة الالهة المذكرة والمؤنثة التي تشكل منها التاسوع ولم يواجه بايتي عنفا ماديا مباشرا او غير مباشر ولم يشعر بعنف رمزي لعدم استجابته لطلب الالهة بالعودة الى البيت الاول بعدما انتقم له الاخ الاكبر انوبو وهذه واحدة من العناصر الايجابية في الفكر العراقي / المصري القديم وبقاء الانسان / الدنيوي حرا في اتخاذ قراره المتصل بعلاقة ما مع احد الالهة واحيانا يتحدى الانسان الالهة وهذا ما تضيئه اسطورة " ادابا " الاكدية واسطورة " بستاني شوكاليتودا " * وحكاية لاخوين.

وهذا يعني امكان الانسان التصرف بما يعتقده صحيحا ولذا لم يستجب بايتي لطلب التاسوع بالعودة للبيت، كما ان رفضه يوميء لبذره تشكل جديد بمفهومه الاجتماعي / الزراعي / والديني . وفعلا ابتدأ تشكل النواة من خلال ثنائية

---

* خزعل الماجدي / الدين المصري / سبق ذكره .. ص 46

* قاسم الشواف / ديوان الاساطير / اعطني ، اعطني ماء القلب / دار الساقي / بيروت / لندن / 1996.

الذكورة / بايتي ، والانوثة / الزوجة المخلقة ، وابتدأت حياة القطبين هانئة وسعيدة ، لكن انحراف المرأة عن الضبط الذكوري ووصايا البطرياركية هو الذي خرق الحياة الهادئة / السعيدة للزوجين.

واحب بايتي امرأته كما لم يحب رجل امرأة من قبل ، وبلغ به الحب ان صار يغار عليها من النيل نفسه، فمنعها من مغادرة الدار، والاقتراب من النيل ، حتى لا يخطفها النهر. ومن اجل ان يؤكد لها مدى حبه واخلاصه كشف لها عن سر قلبه المعلق على زهرة الطلح ، وحذرها من قطعها حتى لا يفقد حياته ويموت "

ومحاولة الزوجة خرق هذا التحذير تاكيد على العناصر المكونة لشخصية المرأة تلك العناصر الشريرة والاغوائية وسيطرة الجسد عليها ولا وجود لمجال تصحيح هذا الموقف في الخطاب الذكوري ومنذ لحظة صعوده الاولى على انقاض سلطة الالوهة المؤنثة في انتاج الثقافة والمعرفة.

ولان المرأة / الزوجة لم تحترم وصية زوجها حلت عليها اللعنة على الرغم من انها عاشت حياة ملكية سعيدة، الكنهاملاحقة بالخوف والذعر الذي تكشفه الحكاية، حتى لحظة مواجهتها للقتل بالسيف. وتحققت نبوءة الهات الجمال السبع بعدما صارت رمزا للخيانة الزوجية وتفريطا بما هو خاص وسري. ولا تختلف شخصية المرأة / الزوجة في هذا الموضوع عن النساء اللاتي في الكثير من الحكايات والمرويات وخصوصا في الليالي واعتقد بان عناصر الخيانة والسعي لمغادرة الخطاب الرجولي في مفاصل منه من تأثيرات الحكاية من الليالي وتتداخل بعناصرها السردية والبؤر السببية، من اجل تحقق نمط من السرد المولد للاستباق ةالاستشراف مع ملاحظة قلة الخصائص الفنية للاسطورة في حكاية الاخوين التي زاوجت بين الوظائف السحرية / الدينية / الالوهية وبين بعض من بنى الحكاية المعروفة في عرض وتقديم العناصر السردية المألوفة والمتحكمة في التطور النصي وحصول تطورات مثل التي في حكاية الاخوين تطورات لم تستطع مغادرة المجال الديني / الالهي ، والسلطة السياسية / الاجتماعية التي حازت وظائف

سحرية / دينية ، وبعضاً من خصائص الالوهة كما في الحكاية ، وهذا التعالق الحاصل بين بنية الاسطورة والحكاية ووظائف كل منهما هو الذي ساعد القراءة على تأشير عزل / وفصل بين الاسطورة والحكاية على الرغم من ان الحكاية في بعض من وظائفها تمثل امتدادا واضحا للاسطورة عبر العناصر الدينية والوظائف الطقوسية والسحرية.

لقد جسدت ميثولوجيا العديد من الشعوب بطلين* مثقفين اثنين يكونان اعتياديا اخوين – تؤامين [انعكاسا للزواج الخارجي الثنائي او تقسيم القبيلة الى انفاذ] وفي هذه الحالة فان واحداً منهما – يحافظ على مبادئه السامية اما الاخر فيصبح حاملا لروح الخبث او على الاغلب للقيم العاتية [كان يدمر ما يبنيه الاخ الاخر ، ويفشل في محاكاته] وتتجمع حول النوذج السلبي للبطل المثقف نكات عديدة وقديمة جدا ، وحكايات بهيمية ... بينما تنسب الى الاول حكايات بطولية .

لقد تجسد هذا التوصيف في قراءة وتحليل الاستاذ شكري محمد عياد لشخصية بايتي البطولية التي درسها ضمن مسار منهجه في ملاحقة البطل في الادب والاساطير. والافعال البطولية التي انجزها الشاب بايتي والتي تختلف عن انجازات الكثير من الابطال الذين عرفتهم الاساطير والملاحم لان الشاب بايتي استعان لتحقيق الافعال البطولية بالطاقة السحرية الخلاقة التي عرفها النظام الفكري المصري القديم . ولم يعتمد مثل غيره من الابطال في الملاحم والاساطير على قدراته الجسدية وتفوقه في مقاومة الطرف الاخر في الصراع ولا يمكننا التوحيد بين جلجامش الاكدي ولا هرقل الاغريقي لانه لم يكن حائزا على عناصرهما المميزة لهما ولم تكشف حكاية الاخوين عن المناصرة الواضحة والصريحة في كل التفاصيل السردية للنص باستثناء المساعدة في تاسيس المانع المائي او تخليق امراة تعيش معه في وادي الطلح باعتباره العنصر الانثوي في ثنائية منظوم الخصوبة وعقائد الحياة /

---

* اي . ام ميليتيسكي / الادب القصصي الشعبي ، ضمن كتاب نظرية الادب / ت : د . جميل نصيف التكريتي / دار الرشيد / بغداد / 1980 / ص 108

والانبعاث .اما العناصر السحرية التي حاز عليها بايتي فليست كافية للتعامل واياه كبطل ممثل للجماعة لان تلك العناصر ستؤدي النتائج ذاتها اذا توفرت لشخص اخر غيره.

الاله رع

شو [الهواء] وتفنوت [الرطوبة]

الاله شو يرفع السماء [نوت] والاله جب / الارض

الالهة اوزريس ، ايزيس ، نفتيس ، ست

واصر بايتي على البقاء في الوادي. ولهذا السبب امر الاله المخلق " خنوم " بخلق امرأة تصير زوجة له. وفعلا تحقق فعل الخلق. وكانت المرأة جميلة، واجمل من كل نساء الارض.

انها امرأة تشبه الالهة " ايزيس " زوجة الاله الشاب " اوزريس" ويقود هذا الشبه القراءة للتذكير بالمهام المشتركة بين " بايتي " و " اوزوريس " في المجال الزراعي والاخصاء، وكان الفرق بينهما هو ان اخصاء " بايتي " فعل ذاتي ، واخصاء " اوزوريسي " خارجي نفذه الاخ الشرير " ست " ولهذا الاخصاء دلالة واسعة لها صلة كبيرة مع تعطل الحياة وايقاف عجلتها والقضاء تماماً على نظام الخصب فيها. وكان فعل الاله الشرير " ست " فعلا خطيرا، استهدف العناصر الاساسية / المركزية لدورة الحياة وحركة انتظامها وبقاء حالة الخصب والانبعاث لتلك الحركة.

ان الحكايات الشعبية قلما تتعرض لموت البطل لانها تفضل ان تتركه في اوج السعادة حتى ياتيه [هادم اللذات ومفرق الجماعات] ... والحكاية لا تميل عادة الى فكرة قتل الملك البديل - كما قال الاستاذ شكري محمد عياد.

واوضح بان – حكاية الاخوين - عمقت الخلاص / والانقاذ وفارقت تماما فكرة القتل ، ولم تكرسها ابدا من اجل اضفاء سمات الشرعية على البطل ومنحه صفات ليست ارضية وتساعده الالهة. في محطات مهمة من السرد الحكائي. مساعدة لن

تستطيع عليها الا الالهة، وتحول الشاب " بايتي " من ملاحق ومظطهد في ان الى نموذج للانسان / البطل .

وكان البطل - بايتي – نموذجا للانسان الذي يخرج في عالمه * الصغير الى عالم القبيلة الممتد في الماضي والمستقبل المرتبط بقوى كونية اكبر من القبيلة واوسع من معنى الانسانية نفسه ثم حين وجد نظام الملكية المقدسة، كان البطل هو نموذج الانسان الذي لا فضل له في نفسه ، ولكن كل فضله هو اتصاله الاوثق بهذه القوى الكونية التي تحدد حياتة وموته ولم يستطع الانسان قط ان يخرج عن هذا النطاق الذي فرضه عليه وجوده نفسه، ككائن يعيش في جماعة ويخضع لظروف مادية خارجة عن ارادته ولكنه استطاع - فقط - حين شعر بفرديته ان يعيش في صراع دائم مع هذا النطاق الاجتماعي والكوني ، ومن هذا الصراع استطاع ان يحقق كل مبتكراته بل استطاع ان يعدل في هذا النطاق نفسه وان لم يستطع ان يحطمه تحطيما تاما.

وتمثلت مبتكرات " بايتي " في سعيه المستمر للاتصال مع القوى السحرية واستنهاض طاقاتها الخارجية من اجل البقاء من خلال طاقة مولدة ترتحل وتتغير بين زمن واخر كل هذا حتى تحين اللحظة التي يريد ويحلم بها، وينتصر لذاته الفردية المهانة من قبل المرأة / الزوجة . وتبدي فعل الحياة عبر الموت ولاكثر من مرة وحاز رمزيا على صفة الاله الشاب القتيل ، الهابط الى العالم الاسفل والصاعد منه ، منبعثا مرة اخرى.

وهكذا بقي الشكل القديم .. ** الحياة التي تنبعث من الموت / البطل الذي يموت ليبعث في عالم ارحب ، المجتمع الذي يتخلص من بطله الفاني ليجدد حياته بروح فتية، روح الخير التي تمزق او تدفن لتظل حية وتؤتي ثمارها الطبيعية. لكن في داخل هذا الشكل المستقر المحافظ كان المضمون يثور ويتجدد فحين شعر الانسان

---

* شكري محمد عياد / البطل في الادب والاساطير / سبق ذكره ... ص 140.

** شكري محمد عياد / البطل في الادب والاساطير / سبق ذكره ... ص 140

بفرديته اصبحت تضحية الفرد فاجعة وشحب المعنى الاجتماعي الكوني لهذه التضحية ، وهو تجديد حياة الجماعة وحياة الطبيعة.

من هذا، كان " بايتي" كما ذكرنا - - معتدا بنفسه وقدرته، بعد ان تحققت لحظته الاولى، لحظة خلاصة من هيمنة الاخ الاكبر، وطغيان المرأة / زوجته وليس سهلا عليه - بايتي - ان يفرط بالذي انتظره وحققه. وهنا ابتدأت شخصيته الجديدة تأخذ ملامحها المغايرة . صوت الذات والاعتداد بقدرته الفردية وطاقته الجسدية القوية جدا والتي سببت له الكارثة . ورفض " بايتي " العودة الى البيت – مثلما طلب من الالهة – هو رفض لنمط حياته السابقة وتقليديتها وتحدياً للسلطة الاسرية / الابوية الضاغطة عليه . وهنا تلتقي حكاية الاخوين باسطورة ادويب المعروفة التي حاولت البرهنة على ان الانسان لكي يستقل بارادته عليه ان يتحرر من الارادة المهيمنة* ... وهذا جانب من جوانب المأساة الانسانية ، مأساة الانسان في صراعه لاثبات وجوده اما الجانب الاخر من تلك الماساة فهو ان ارادة الابناء تسيطر عليها ارادة اخرى غير ارادة الاب ، هي ارادة الام وهي تعادلها بالقوة والفعل ان لم نقل تجاوزها في ذلك وقد انتبه اليها التفكير الشعبي العربي والاغريقي.

واستطاع " بايتي " على الرغم من خنوعه في البيت – من اختراق بنية التسلط الابوي / الاخ والزوجة، والمغادرة نهائيا ، ليرسم ملامح جديدة لشخصيته الاجتماعية وحيازة عناصر رجولة متكاملة حازت على عناصر الحكمة / والمعرفة وبها ظافرت شخصيتها عبر مراحل عديدة وطويلة، مظافرة السحر للعقل في لحظات الازمة، ويكون السحر منقذا اوليا.

واعتقد ا ن احد اهم الاسباب التي جعلت " بايتي " يرفض طلب التاسوع بالعودة الى البيت هو انفتاح البصيرة، ومعرفته لقانون الخير والشر في الحياة . وقد تعزز

---

* داود سلمان الشويلي / الف ليلة وليلة وسحر السردية العربية / منشورات اتحاد الكتاب العرب / دمشق / 2000 / ص 90.

لديه لاحقا بعد الذي حصل له في وادي الطلح. ويمثل هذا بالنسبة اليه اكتشافا مهما. وقدمت الحكاية دعما له متمثلا بالافعال التي قامت بها الزوجة / الملكة. والحكم بالخير والشر ثمرة من ثمار العقل الفردي الذي لم يعد ذائبا من الجماعة وهذا هو الفرق بين الاعمال التي يقبل عليها الانسان نتيجة لحكم خلقي باستحسانها، وبين الاعمال التي يقبل عليها لانها طقوس او شعائر .. اما اذا مضى الانسان في تحكيم عقله الفردي في الخير والشر فانه قمين ان يقع في التناقض لان الاشياء لا تبدو له دائما في صورة واحدة ومن ثم فقد يحكم بخيرية فعل ما، ويقدم على فعله على هذا الاساس ثم يتبين - بعد فوات الاوان - انه شر .

وبالامكان تلمس هذا في الاسباب التي كانت وراء التحول المستمر في شخصيتة " بايتي " السرية / الخفية، ولم يعرف الفرعون كل الاسباب او احدها التي وراء تمنيات الزوجة / الملكة بقتل الثور، او قطع الشجرة ، ولم يسأل عن القدرة الممكنة / والمتاحة للتجاوز على المقدس / الثور والشجرة – ايضا . هذه التحولات ما كانت تكون لولا عنصر الشر في اعماق الملكة .

وبذلك رسخت البنية الذهنية البطرياركية موقفها الفكري ضد المرأة في الثقافة. ووحدت بين النساء بخصائص العدوانية والسحر فالمرأة واحدة اذا كانت زوجة " انوبو " او زوجة " بايتي " او زوجة لفرعون، وهذا ما ارادته الثقافة الذكورية وكرسته تماما وصاغت لغتها وخطابها الذي لا يهزم ابدا وظلت المرأة وسط ذلك الخطاب متماثلة. حيث يجري تعميم المثال الواحد* ويجري تصنيف الانوثة وتنميطها بناء على ما تفعله واحدة منهن، والمرأة هنا ليست ذاتا مستقلة تعبر عن نفسها وتمثل فرديتها وانما هي نموذج ومثال على جنسها كله، على عكس الرجل الذي تنظر اليه الثقافة بوصفه ذاتا مستقلة، وفعل واحد مستقل وذات خاصة، وتكون الصفات والنعوت في الذكورة انواعا واصنافا والذكورة بهذا تقوم على التنوع

* د. عبد الله محمد الغذامي / ثقافة الوهم / سبق ذكره ... ص 77 – 78 .

والتعدد، والفعل فيها نسبي وذاتي واحتمالي ؟ اما الانوثة فهي جنس واحد ونوع واحد وشعور واحد. وما تفعله واحدة من النساء يكون صفة لهذا الجنس، خاصة الافعال الجسدية النمطية.

ويمكننا الاشارة الى ان شخصية الشاب بايتي تمثل امتدادا طبيعيا لعدد غير قليل من الحكايات والخرافات، وكذلك الاساطير وتتبدى من خلاله عناصر عدد من الالهة الشباب في الشرق مثل اوزوريس / ادونيس / ديونيس / آتيس وتوجد كثير من النصوص التي هيمنت فيها الخصائص الحياتية الشابة وصراعها القوي المدمر من اجل البقاء والحفاظ على الحياة الدورية، والعودة مرة اخرى، وكأن اسطورة هؤلاء الشباب محكومة بالضبط الدقيق لانها صاغت العود الابدي الذي اشار له العالم المشهور [مارسيا الباد] اي ان الحياة لا يمكن لها مغادرة النموذج البدئي الاول والذي حصل الزمن الاسطوري . لقد وضعت الام الانسان في وقت باكر[**] في علاقة مع الام اله ما. وليس كمنح هذه الالام نموذجا بدئيا ما يكسبها في الوقت نفسه صفة " الحقيقة " و " الطبيعة " واقدم اسطورة تتحدث عن عذاب اله والامه هي اسطورة موت الاله تموز وانبعاثه وقد عرفت هذه الاسطورة تكرارا وتقليدا في جميع انحاء الشرق القديم تقريبا وقد ظلت اثار سيناريو هذه الاسطورة باقية حتى ظهور المذاهب العرفانية [الغنوصية] التي عرفت نشوء المسيحية .

لقد مات " بايتي " واستعاد حياته سحريا وظل الموت يتكرر، ولكنه تكرر غير موسمي وانما هو تكرر محكوم بعناصر البنية السردية لنص حكاية الاخوين. وقراءة الحكاية غير المدلول الرمزي لبنية الحياة / والموت ، سنجد تناظراً مع الالوهة الشابة المذكرة ، والاختلافات معها طفيفة . مع ضرورة ملاحظة العود الانبعاثي الحلولي في جسد اخر حيواني / نباتي. والمهم هو استمرار حياته من خلال منظوم الخصوبة

[**] مارسيا الياد / العود الابدي / ت: نهاد خياطة / دار طلاس / دمشق / 1987 / ص 177.

وعقائدها في الشرق. ولذا فاننا قد اشرنا الى ان هذه الحكاية امتداد طبيعي لعدد غير قليل من الاساطير والالهة، واستطاعت التوحيد بين السحري / الديني / الالهي وبين الاجتماعي / السياسي.

ونستطيع التأكيد على ان حكاية الاخوين لم تكن طارئة ودخيلة وانما هي ذات جذر تاريخي* واجتماعي وبالتالي سحري وديني. وبهذا نصل الى ان الحكاية مرآة كاشفة لمحيطها ومجسدة له والشكل الظاهر والمتداول للحكاية او الاسطورة لم يكن في حقيقته سوى نص متمركز يقود نحوه كل الاضافات والملاحق المضافة نحو هيمنته، لانها - الحكاية / الاسطورة - لا تستطيع الغاء الجذر الاجتماعي والتاريخي للاختلاف والتباين. ولهذا بالامكان ملاحقة النص عبر اتصاله مع النصوص السابقة واللاحقة وهذا ما ستحاوله الدراسة في الباب الاخير.

وتظهر في هذه الحكاية المصنوعة بشكل دقيق عناصرها الفنية وخصائصها الفكرية وتصورات دينية** هي اسس للعقيدة منتشرة بصفة عامة، من ذلك الميلاد السحري وقوة الشعر وبعث المفتول والروح الذي يستقر في بقعة من الدم، والعلاقة بين الانسان والحيوان والشجر والنهر. لكن الحكاية في عمومها تحتوي حقا على نواحي غموض كثيرة. وهي الى ذلك غنية بالمفاجآت وبالمزج بين الحوادث المفردة.

حكاية الاخوين واساطير الشرق القديم

ان تاريخية تدوين حكاية الاخوين بـ 1300 ق.م * وانتشارها في العالم عام 1852. وبالامكان اقتراح زمن اسبق من الذي اشارت له المصادر الخاصة بالحكاية الخرافية. واعني بان الحكاية المروية قد صاغتها البنية الذهنية المصرية بزمن

---

* ناجح المعموري / الاسطورة والتوراة / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / د.ت / ص 20.

** فريد رسن فون دير لاين / الحكاية الخرافية / ت: د. نبيلة ابراهيم / م:د. عز الدين اسماعيل / المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية / دار نهضة مصر / 1965 / ص 156.

* فريد رسن فون دير لاين / الحكاية الخرافية / سبق ذكره ... ص 155.

اكثر قدما من زمن التدوين وحتما لابد من اخضاع الحكاية اية حكاية للزمن الطويل والتداول والانتشار كشكل من اشكال الامتحان لقدرتها وتأثيرها ومن بعد تستحق / التدوين ، كي تستقر مدونة، وتأخذ شكلها الشفاهي الاخير في المدونة.

واعتمادا على تاريخ المدونة نستطيع الاشارة وبثقة الى ان هذه الحكاية هي الاصل لكثير من الحكايات الخرافية المماثلة لها في بعض من عناصرها وهي ايضا الينبوع الذي تغذت منه الاساطير الخاصة بعقائد الخصوبة والانبعاث واضفت ملمحاً او اكثر على عدد من الالهة في الشرق وخصوصا الالهة الشباب الذين وردت اشارات لهم في متن الدراسة. وهذا يكرس الرأي القائل بان هذه الحكاية - حكاية الاخوين - هي الاصل والجذر المبكر لقصة يوسف التوراتي. ومن الممكن تكريس هذا الرأي من خلال المرحلة التي شهدت التدوين 1300 ق.م والمرحلة المقترحة في الدراسات التوراتية لخروج موسى من مصر وهي في حدود 1240 ق . م وهذا ما سنحاول تأويله لاحقا.

وكان للحكايات المصرية الكثيرة تاثير واضح في الاسفار التوراتية ونحن نعرف * عنهم مجموعة من النماذج التي تدل على حدة الذكاء، بل ان حكم سليمان نفسه ترجع الى حكم وتعاليم مصرية ظهرت في القرن الثامن ق.م ونجد في مخطوط قبطي حكاية عن سليمان وملكة سبأ ذات طابع خرافي : تقول الحكاية المصرية ان سليمان حاول دون جدوى ان يحقق لنفسه اسطورة - عن طريق خاتمه السحري - على الملكة الذكية وقد وعدته الملكة بان تمنحه عمود المعرفة اذا ما استطاعت شياطينه ان تحملها اليه في سرعة فائقة. وقد عرض الشيطان الاول ان يحضرها في يوم كامل حتى المساء ، اما الثاني فقد عرض ان يحضرها في ساعة من الزمن ، واما الثالث الذي كان نصفه انسانا ونصفه طائر فقد عرض ان يحملها اليه في

* فريدرسن قون دير لاين / الحكاية الخرافية / سبق ذكره .. ص 159.

الزمن ما بين شهيق سليمان وزفيره ، وقد حقق الشيطان هذه الاعجوبة فتمثلت حقا كل معرفة الارض مكتوبة على عمود ، حتى اسرار الشمس والقمر.
الاسطورة والعقائد والطقوس باقية ، لا تندثر تماما وانما تتفكك احيانا ويمتد البعض منها ليلتقي مع المنتج الثقافي، لخطاب اسطوري اخر ، متجاور او بعيد ، باعتباره شكلا من اشكال التحاور مع الخطابات الثقافية الاخرى.
وما يختفي من التداول يظل كامنا ويستحيل بعضه الى رموز[**] في اداب العالم وتلفع بعضه الاخر بدثار ما اسماه - يونج - اللاوعي الجمعي، متصلا بالنماذج العليا او المنشئة.
لذا فاننا بالامكان ملاحقة الاسطورة كنص متصل مع النصوص [*] السابقة لها، لان بنية الاسطورة ممتدة ، متلاحقة ، من اجل بقاء بؤرة النص المشع او المتألق حتى يشير الى تاريخية واضحة، لان ، كل اسطورة هي الحاصل النهائي لجميع صورها في جميع حقب التاريخ وأن كل اسطورة تشمل على تحولات وتبدلات وبان هذه جميعا تشكل جزءا من الاسطورة في جميع حقب التاريخ.
وان الانسان اليوم لم يعد يتمسك باحد الاحتمالين[**] دون الاخر بوصفه المبدأ الاساسي ، اعني مبدأ هجرة الاداب الشعبية ، واعتماد بعضها على بعض ، او استقلالها، اذ انه من الممكن لكلا الاحتمالين ان يقفا بصفة اساسية جنبا الى جنب مع الاخر .. بل انه في بعض الاحيان قد يتفاعل اثرهما معا .. ثم ان الافكار الدينية لا تجد مجالا للظهور في الطقوس فحسب ، بل في الحكايات الخرافية والشعبية كذلك فاذا تضمنت الحكايات الخرافية والشعبية هذا الموضوع الديني فاننا نميل لان نطلق عليها بكل ارتياح " اساطير الالهة".

[**] د. احمد كمال زكي / الاساطير – دراسة حضارية مقارنة / دار العودة / بيروت / ط2 / 1979 / ص15.
[*] ناجح المعموري / الاسطورة والتوراة / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / د.ت / ص20.
[**] فريدرسن فون ديرلاين / الحكاية الخرافية / سبق ذكره ... ص 35.

وفعلا يمكن التعامل مع " حكاية الاخوين " باعتبارها نصا اسطوريا لان الطابع الطاغي فيها هو الديني وشخوصها الالهة كما اشرنا لذلك ، لكنها - الحكاية - قد تضمنت بعض التفاصيل السردية للحكاية والتي لم تعرفها الاسطورة من قبل كذلك شيوع اللغة المحايدة التي فقدت مجازها احيانا ، اضافة لممكنات تلمس ملامح المرحلة السياسية / الملكية.

أ- خنوم الفخاري ب- خنوم [الذي في شمسه] ج- ساتيس زوجة خنوم

ان هذه الحكاية تتصل باسطورة الالهة* اتصالا وثيقا، ولكننا لن نغالي في هذا كثيراً باي حال من الاحوال فندعي انها ليست حكاية خرافية على الاطلاق ، لان الحدود بين الحكاية الخرافية والاسطورة لدى الحضارات الاولى والمتطورة متداخلة الى درجة ان كلا الشكلين لم يكن لينفصل احدهما عن الاخر انفصالاتاما ... اننا نفترض ان - حكاية الاخوين - المصرية كذلك صورة مسرحية لشكل اسطوري جاد من الممكن ان نعثر على ملامحه في الطقوس، فميلاد فرعون الجديد من تلقاء نفسه بوصفه كائنا الهياً امر ممكن الاستدلال عليه من الطقوس المصرية.

ان الولادة المتحققة بالاتصال الرمزي / والتمثيل شائعة ومعروفة في ديانات الشرق الوثنية والتوحيدية، وهي ولادات ذات وظائف دينية فعلا، وقد حصل تخصيب بالاتصال الخارجي وتحقق انجاب كل من : كرشنا / بوذا (زرادشت / يوسف التوراتي / المسيح)

وهذه الولادات لا تختلف عن الطريقة التي تم فيها تخصيب الملكة وولادتها لـ " بايتي "

التأويل الحيوي

* فريدرسن فون ديرلاين / الحكاية الخرافية / سبق ذكره ... ص 157.

غادر الشاب / البطل " بايتي " بيته البسيط / الجميل في وادي الطلح* لممارسة عمله اليومي المقترن بدوره البطولي في الحياة لانه لايبتدي بطلا بدون المغامرات وملاحقة الحيوانات باعتباره نموذجا مماثلا للبطل انكيدو / وهرقل .. ويبدو بان بايتي ابتعد قليلا لانه لم ير زوجته وهي تدخل الى الوادي مدفوعة بفضول المرأة الى رؤية قلب الزوج المعلق على زهرة شجرة الطلح، ويلاحظ اقتران دخول الزوجة الى الوادي مع الزمن الخاص بتجدد اشجار الطلح، وذلك لوجود ازهارها الجديدة. ولابد من اقتراح ملاحظة، لها علاقة بالزهرة - الجنين - الذي سيكبر ويتبلور ثمرة طلح . وفي هذا اشارة عكسية لفقدان الزوجة لوظيفة الخصب المميزة لامومة المرأة . وما يدعم هذه الملاحظة هو التتالي بين رؤية الزهرة والتحرك نحو النيل / الماء، باعتباره العنصر المهم والاول في الحياة من اجل الحفاظ عليها واستمرارها بالتجدد، والانبعاث. وتثير زيارة الزوجة الى النيل عددا من الملاحظات التي لها علاقة - ايضا - بنظام الخصوبة. في الحياة المصرية وعلاقة النيل بذلك واصطفاف الاله – اوزوريس - مع النيل الها له ومحاولة السرد لتدعيم العلاقة بين " بايتي " وتفاصيل الحكاية مع الالوهة الشابة القتيلة، والتي تعاود انبعاثها من جديد. ووردت اشارة في - الحكاية الخرافية - الى ان " بايتي " اودع قلبه بين البراعم. وهذا اختلاف مهم ولا يمكن اغفاله والتقليل من دلالته التي تفضي بها وتبلور مفهوماً حول الخصوبة والالوهية الشابة. البرعم هو اللحظة الاولى من زمن الانبعاث وبعده تاتي لحظة بروز الاوراق ومن يعده ظهور الازهار التي هي العتبة المفضية نحو الثمار.

((واذ اشبعت فضولها ، جاست على جانب النهر وكشفت عن ساقيها الجميلتين، ودلتهما في الماء، وهي تحركهما في صخب، ولذة وانطلاق. واضطرب النيل واثاره مرأى الساقين الجميلتين، واحس جوى اليها فدفع امواجه تضمها وتحاول اختطافها

* اشار الاستاذ شكري محمد عياد بان الوادي هو وادي الارز، وذكر فريدرسن فون ديرلاينبن في الحكاية الخرافية بانه واد للسدر.

ولكنها سارعت برفع ساقيها العاريتيين، وانطلقت تجري في خوف الى داخل الدار))

لقد تأنسن النيل وحاز قدرات سحرية / الهية وحصراً الالوهية الشابة / اوزوريس، وجسدت الحكاية موقفا عاطفيا / وجنسيا مكشوفا، وازدحم النص بمفردات لذية / وشهوية مثيرة [كشفت عن ساقيها الجميلتين / وهي تحركهما في صخب ولذة / واضطرب النيل / واحس جوى اليها/ حاول اختطافها]

تقدم هذه التوصيفات تأويلا واسعا، وهو ان الزوجة جائعة جنسيا وشبقه وفيها عناصر الالوهة المؤنثة ذات الوظيفة الجنسية مثل انانا / عشتار في العراق ، عشتاروت / سوريا وكنعان / سيبيل اسيا الصغرى / ايزيس ، مصر / وغيرها من الالوهات المؤنثة في ديانات الشرق الادنى القديم، مثلما اضاءت المجال الحيوي. في عقائد اوزوريس الخاصة بالخصوبة لان مشهدها وهي تمارس فعل الاتصال الرمزي معه من خلال حركة ساقيها، وقد اشعلت في اعماقه عاطفة الحب والوله، لذا حاول اختطافها. وربما كان فعل النيل / الاله اوزوريس تعويضا لذكورته المفقودة واستبدالها بالماء، العنصر الفاعل في عملية التخصيب، لان ماء الذكورة مخصب للانوثة بعد الاتصال، والماء له دور مماثل في علاقته مع الارض، ولان البنية الذهنية في الشرق قد وحدت بين الماء وبين ماء الذكورة، كذلك اسست تناظراً بين الارض / الام وبين المرأة ، لكن النيل خسر فرصته الكبيرة في تحقق فعل الخصب. لان النيل الذي يروي* الارض ويغذي الزرع، انما ارسله عليهم من السماء الاله اوزوريس، فاذا عاشوا عيشة النبل والايثار ففي مقدورهم ان يلحقوا بمملكة الاله العظيم حيث يعيشون في رفاهية ومجد، وبهذا الاسلوب بث اوزوريس في نفوسهم فكرة تقدير الموجود الاعلى، وقد سهل عليه سبل الاقناع، ان

* كمال الحناوي / اساطير فرعونية / الكتاب الماسي / القاهرة / د.ت / ص 18.

اعماله كانت خارقة تبلغ حد الاعجاز، حتى ان سامعيه كادوا ان يحسبوه هو نفسه الاله العظيم الذي يحدثهم.

وهنا لانستطيع التفريق بين النيل والاله اوزوريس , احدهما ينوب عن الاخر، اوزوريس / النيل حاول وجاهد من اجل اختطاف ابنة الالهة وممارسة الاتصال البايولوجي معها.

فاذا لم يصعد الماء اليا الى النهر او من ابار عميقة توقف الزرع عن النمو، وهزلت الناس والمواشي وارتخت ، واستقرت الانظار على وجه المجاعة. عندئذ، والحياة على اوهنها، يتململ النيل ، ويبدو فيه نبض من العزيمة، وترتفع مياهه طوال الصيف ببطء، وبدفع متسارع الى ان تجعل مياهه الزاخرة تتسابق وتتلاطم.

لقد تجسد هذا المفهوم الفكري تجسيدا واضحا في حكاية الاخوين، وما يعنينا هو المستوى الرمزي للحكاية الكاشف عن ابتداء صعود المياه في النيل والترقب الى لحظة الطوفان وانقاذ الانسان، عندما يغطي الارض / الام / الزوجة / ويقيم معها اتصالا من اجل الخصوبة والحياة. وياتي النيل يالمياه والتربة** المخصبة، غير ان فيضانه السنوي لا يمكن التنبؤ به. ربّ فيضان شذ في الاسراف، ولربما شذ النيل في انخفاضه فجاء بالمجاعة، والفيضان يجيء بسرعة ، ويذهب بسرعة، فلابد من عمل دائب يقصم الظهر للامساك بالمياه، وحفظها، وتقنينها لاطالة وتوسيع الفائدة منها قدر المستطاع، والصحراء متهيئة دائما للتعدي على الاطراف اليانعة وتحويل الطمي الخصيب الى رمل قاحل.

وواضح بان الثنائية القائمة بين اوزوريس والنيل ذات دلالة تبادلية، كما انها تستعيض بالاخر للدلالة على الاول ، ومن هنا منح المصريون النيل الالوهة صفة له ، وعبدوه ، واعتقدوا بانه مزدوج الجنس ، ذكر وانثى وعلى رأسه حزمة بردي

** فرانكفورت / ما قبل الفلسفة / سبق ذكره ... ص49.

علامة له[***] وقدم له المصريون الاضاحي، وصاغوا له الكثير من الطقوس. وهي طقوس ذات صلة مباشرة بعقائد الخصوبة... وفرعون الاله في الحياة يبقى الهاً بعد الوفاة، وله الفضل في اخصاب المواسم لانه اله النيل ومصدر كل ازدهار.

انغمار ساقيها الجميلتين في النيل وتحريكهما معا بصوت مثير، هو فعل اتصال جنسي بين الزوجة والنيل. والمرأة والاله اوزوريس، انه اتصال اثار في النيل اضطرابه لكنها في اللحظات الاخيرة، سارعت الزوجة برفع ساقيها وهروبها الى البيت. تركت النيل باضطرابه وهياجه واسفه ايضا، لانه فشل في اختطافها الذي يمثل امنية لديه، حتى يتمكن من ممارسة فعل الاتصال الجنسي معها. لكن النيل ظل بولعه وجنونه بها حيث راح يتوسل بشجرة الطلح ان تسمح له باختطاف الزوجة، ويبدو بانه لاحقها الى وادي الطلح ولم يجد استجابة لدى الشجرة وسماحة من اجل اختطافها وبسبب توسله والحاحه اشفقت عليه واعطته خصلة من شعر الزوجة، يهدئ جنونه بشم الخصلة. وشم الخصلة فعل تعويضي / وبديل للاتصال الجنسي / الجسدي، وهو شكل اتصالي مع الجزء ليعني الكل. لكن ما هي العلاقة بين النيل وشجرة الطلح؟

عرفنا بان النيل هو الاله اوزوريس المعني بالخصب في الحياة واشجار الطلح من تبديات الخصب وعلاقة الماء مع الارض ،وطلبه الى الشجرة باختطاف الزوجة هو تعبير عن السيادة الذكورية الممثل لها بالنيل / الماء وطغيان صوته على التجسدات الانوثية في الحياة والتي كانت اشجار الطلح نموذجا لها.

حمل النيل خصلة شعر الزوجة اثناء جريانه، ودخلت وسط مغسلة فرعون الممتدة على جانب النهر قسقطت شعرة من الخصلة وسط المغسلة، فانتقل العطر الطيب / الزكي الى ملابس فرعون ، وتنتقل الاثارة والهيجان اليه مثله مثل النيل من قبل وهنا تأخذ الحكاية مجالا جديدا ومهما للغاية وهو المجال السياسي ، المتداخل مع

[***] عبد الهادي عباس / المرأة والاسرة في حضارات الشعوب وانظمتها / دار طلاس / دمشق / ج1 / 1987 / ص 286.

الديني، متمثلا بشخصية الملك وصعوده عنصرا فعالا سيؤثر على بنية السرد وتطوره، وتظل الاسطورة محكومة له كليا. ويشكل فرعون عنصرا في السرد متمتعا بثقله السياسي / والديني ومتميزا بالدور الذي سيأخذه في مسارات الحكاية ، التي ستبدو واقعة تحت هيمنته وسطوته فكل التطورات اللاحقة في البنية الاسطورية وعلاقاتها السردية خاضعة له وغير قادرة على الافتراق عنه . ولهذا فان السلطة السياسية / فرعون / تعلن عن وسيلتها الوحيدة العنف المعلن ضد رئيس الغسالين وضرورة ان يأتيه بسر الطيب واذا فشل فان مصيره القتل.

وواضح بان القتل بنية كثيرا ما كرستها الحكايات الخرافية / والشعبية، وهو في هذه الاسطورة اعلان عن بداية التكريس السياسي في النص اولا، وهو علامة على خطاب ديني يتعامل مع القتل باسبابه المتعددة .

وتبدو اهم تلك الاسباب الوظيفة السياسية / الدينية لفرعون وبالامكان اعتباره قربانا وتضحية، وفي الغالب تكون التضحية اختبارا بديلا للدم.

الاضحية الطقوسية* ترتكز على عملية استبدال مزدوج الاولى - وتظل خفية وهي استبدال جميع اعضاء المجتمع بواحد منهم . وتقوم على اوالية الضحية البديلة . الثانية - وهي الطقوسية ، وتضاف الى الاولى وتطابقها ويتم فيها ابدال الضحية الاصلية باخرى تاتي من فئة قابلة للتضحية. الضحية البديلة تأتي من داخل المجتمع بينما تأتي الضحية الطقوسية من خارجه.

ولان فرعون - السياسي / الديني هو الذي يأمر بتقديم الاضحية لا للوظيفة الدينية فقط، وانما كعقوبة سياسية وهذا ما تضمنه كلام فرعون ضد رئيس العسالين الذي اندفع فجأة في البحث والتنقيب، حتى عثر على خصلة شعر في المغسلة. ويبدو بان للطيب طاقة سحرية، وامكانية جذب كبيرة ولوجود المجال السحري في هذه الاشكالية لم يكن ممكنا تحقق الاجتماع الموسع للسحرة في البلاد وامام

* رينيه جيرار / العنف المقدس / ت : جهاد هواش وعبد الهادي عباس / دار الحصاد / دمشق / 1992 / ص 127.

فرعون. وصعود السحرة مجالا فعالا لم يكن مفاجأة داخل الاسطورة لان مصر تميزت بتفوقها السحري ، وقدراتها غير الطبيعية في هذا العلم.

ان سلطة قوامها الجنس واداتها السحر[**] هدفها استمرار التملك او الاستبعاد بالقهر والقتل ، لايمكنها ان تنتج في التاريخ المادي للشعوب، سوى قوة غاشمة، تظل تقهر الناس حتى ينقادوا ، وتظل تعامل المنقادين انفسهم كعبيد فعليين للملك وعائلته المالكة، وكعبيد وهميين لمعبودات وهمية ، فوق بشرية.

لقد صار الدين المصري كله سحريا بعد ان شاعت [***] الديانة المسيحية .. وهو - السحر - يعني ضمنا اللجوء الى القوى الشيطانية والالوهية مباشرة ... وصار ينظر اليه باعتباره نظاما روحيا وهذا امر متوقع لان الانظمة الدينية المندحرة او الهامشية، كانت دائما بمثابة الاسرار ، والسحر بالنسبة للنظام الديني الشائع المعروف. ويثير هذا الرأي ملاحظة لها علاقة بنظام السحر المصري الذي لم يكن يوما من الايام ضعيفا ولم يؤسس مركزيته الا في المرحلة التي سادت فيها الديانة المسيحية ، فقد عرفت الديانة المصرية ، باعتبارها ديانة سحرية وكان السحر خطابا متمركزا في تلك الحضارة ، وهذا سبب موضوعي لاعتماد موسى عليه في مرحلة الخروج/ ومعروف بان خروجه من مصر سبق كثيرا الديانة اليسوعية. ان السلطة الفرعونية، ممتلكة لقوة السحر وتتعامل به تعاملا صاغ ثوابتها الدينية، ولهذا لجأ فرعون اليه في علاقته مع موسى. لكنه - السحر - لم يكن عاملا منقذا للسلطة الفرعونية وخطابها الثنائي السياسي / الديني ، والدليل فشل السحرة في الكشف عن ماهية الشعرة السحرية في البداية، لانها - الشعرة - ذات خصائص الهية، تمكنت من احباط فاعلية السحر في البداية " لان الخصلة انتزعت من شعر احدى بنات الاله رع حورس التي خلقها التاسوع زوجة للشاب بايتي "

[**] د. خليل احمد خليل / نقد العقل السحري / قراءة في تراث الثقافة الشعبية العربية / دار الطليعة / بيروت / 1998 / ص 64.

[***] خزعل الماجدي / الدين المصري / سبق ذكره ...ص 259

ومما يؤكد وجود الخطاب السحري في بنية الديانة المصرية في وقت مبكر جدا ، هو وجوده في الحياة كلممارسة قديمة* داخل نسيج الدين المصري، وبالامكان معرفة ذلك اولاً في اساطير الالهة، حيث استطاعت الالهة " ايزيس " التسلط على " رع " بعد ان عرفت اسمه الخفي ، وكان ذلك نوعاً من السحر الالهي، وكان الاله " تحوت" هو الاله الذي علم العلوم المقدسة والسرية ومنها السحر. ويجب ان لاننسى محاولة ايزيس لاعادة الحياة الى اوزوريس عن طريق السحر.

لايوجد تابو امام الفرعون حتى ولو كان البحث عن ابنة الاله رع حورس ، الاله الشاب، واقترن حورس بالشاب " بايتي " يعني في الدلالة تناظر " بايتي " معه. في معركته ضد الشر والعدوان، وفعلا حسم الامر في النهاية – ومثلما كان لحورس – لصالح " بايتي "

وتصرف فرعون باعتباره الهاً - ايضا - وليس ملكاً فقط تجرأ وطلب البحث عن ابنه الاله حورس .

ولم يكن البحث سهلا على الجماعات المرسلة الى التفتيش وتقصي المعلومات وكانت الجماعات تستعين بامكاناتها السحرية، اضافة الى قدراتها القتالية، لانها واجهت " بايتي " واصطدمت معه وتمكن منهم لاسباب عديدة اهمها : انه كامن في مكانه أمناً ويعرف تفاصيله الكاملة ، شجاعته وقدرته الفائقة في التصدي والدفع عن مملكته الصغيرة وزوجته الجميلة جدا.

عاد شخص واحد فقط، اخبر الملك بمكان المرأة صاحبة الشعر المعطر / الساحر .

" وانطلق الرسول الهارب الى الملك يخبره بمكان ابنة الاله رع حورس. وأمر الملك فرقة من الفرسان والرماة بالذهاب الى وادي الطلح، وارسل مع الفرقة امراة أوصاها بمرافقة ابنة الاله متى تم اختطافها ومساعدتها على التأنق والتزين وكمنت الفرقة بين الغاب حتى خرج بايتي للصيد .. فهاجموا البيت الصغير فهاجموا البيت الصغير واختطفوا المراة التي خلقها خنوم وانطلقوا بها الى فرعون."

* خزعل الماجدي / الدين المصري / سبق ذكره ...ص 264

ان الجماعات الباحثة عن ابنة رع حورس والتي ارسلها فرعون الى هناك، اكدت التوازي القائم بين السلطات الذكورية المتعددة وتناظرها فيالحق الممنوح لها ، مع ملاحظة التفاوت القائم بين سلطة واخرى بسبب عناصرها ووظائفها . والجماعات المرسلة هي امتداد للسلطة الفرعونية وتجسيد للقوة الملكية، كما انها نمط من السلطة الذكورية القادرة على ممارسة العنف / والقتل باعتبارها راسمالا رمزيا لها ، وهي امتداد بشكل ما لسلطة انوبو / الاخ الاكبر.